"النَّظمُ والسِّياقُ والتَّناسبُ نظريَّاتٌ وفروقٌ عند المفسِّرين دراسةٌ تأصيليَّةٌ نقديَّةٌ"

دكتور

محمد سعيد أحمد ديغم

مدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

جامعة الأزهر

"النَّظمُ والسِّياقُ والتَّناسبُ نظريَّاتٌ وفروقٌ عند المفسِّرين دراسةٌ تأصيليَّةٌ نقديَّةٌ"

محمد سعيد أحمد ديغم
قسم التفسير وعلوم القرآن - كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين دسوق - جامعة الأزهر – مصر
البريد الإلكتروني : Mohamedsaid.2030@azhar.edu.eg

الملخص :

قد جاء البحث تحت عنوان "النَّظمُ والسِّياقُ والتَّناسبُ نظريَّاتٌ وفروقٌ عند المفسِّرين دراسةٌ تأصيليَّةٌ نقديَّةٌ" وذلك لمناقشة هذه النظريات في اصطلاح المفسرين؛ نظرًا لذكر ألفاظٍ مكان أخرى في التعبير عن وصف الآية أو الجملة من حيث ترابطها أو ترتيبها، فتارةً يطلقون النظم على التناسب، والتناسب على النظم، والنظم على السياق، وبالنظر إلى إطلاق المفسرين لهذه الألفاظ فقد يطلقها البعض نظرًا لعدم المشاحة في الألفاظ، وقد يطلقها البعض نظرًا لأنَّ مُؤدى الألفاظ واحد، وهو إبراز ورعاية الترتيب وبراعة التماسك القرآني، ومدى إضافتها للمادة التفسيرية. وقد عرضت للتعريف بهذه النظريات وأقسام كلٍّ منها، واختلاف العلماء في أقسام النظم، وكيف استخدم المفسرون هذه النظريات، وأركان السياق والفرق بين وبين الوحدة الموضوعية، مدى تداخل هذه العلوم الثلاثة في إطلاقات المفسرين على الجمل القرآنية، وأيُّ هذه النظريات أعمُّ وأشمل. ونبَّهت الباحثين لاستعمال المفسرين لهذه الألفاظ هل هو على سبيل التحديد أم على سبيل التجوز في العبارة أم على سبيل التشابك والتداخل؟ حتى يكون القارئ على دراية بما يقرأه.

الكَلِمَاتُ المِفتَاحِيَّةُ النظم – السياق – التناسب – الوحدة الموضوعية – السباق – اللحاق – الترتيب القرآني – إيثار.

Systems, context, and proportionality are theories and differences among commentators, a fundamental, critical study.

Muhammad Saeed Ahmad Degham

Department of Interpretation and Quranic Sciences - College of Islamic and Arabic Studies for Boys - Desouk - Al-Azhar University - Egypt

E-mail: Mohamedsaid.2030@azhar.edu.eg

Abstract:

The research came under the title "Systems, Context, and Proportion: Theories and Differences of the Interpreters, a Critical and Fundamental Study," to discuss these theories in the terminology of the interpreters. Due to the mention of other terms in expressing the description of the verse or the sentence in terms of its interdependence or arrangement, sometimes they call systems on proportionality, and proportionality on systems, and systems on context, and given the interpretation of these terms, some may call them due to the lack of discord in the words, and some may call them Since the performer of the utterances is the same, which is highlighting and caring for the arrangement and the subtlety of the Qur'anic coherence, and the extent to which they add to the explanatory material. I have offered to introduce these theories and the sections of each of them, and the differences of scholars in the sections of the systems, and how the interpreters used these theories, and the pillars of the context and the difference between and between the objective unit, the extent of the overlap of these three sciences in the releases of the commentators on the Qur'anic sentences, and which of these theories is more general and comprehensive. And she alerted the researchers to the use of these terms by the interpreters, is it a matter of specificity, or a way of approximation in the phrase, or a way of intertwining and overlapping? So that the reader is aware of what he is reading.

Keywords: systems - context - proportionality - objective unity - race - catch up - Quranic arrangement - altruism.

المقـــــدمــة

الحمد لله الذى جعل الوجود متسقًا في كائناته وموجوداته، ونظَّم الحياة بأتم نظامٍ وأكمله، وأنزل كتابًا تناسقت وتناغمت حقائقه مع حقائق الكون بما أبهر عيون الناظرين، وأبصر به قلوب الغافلين، فتجلَّت أبصار الحقائق وعيون المعاني بانتظامِ واتساقِ وتناسبِ الكتاب المنشور، مع الكتاب المسطور، فأُشرب هذا الكون ماء حياته، وأعطي حقه ومستحقه من صفات الكمال الدالة على صاحب العدل المطلق العلي الأعلى، موجد الأشياء بعد فنائها، فله المجد الأسنى، والصلاة والسلام على أشرف عباد الله سيدنا محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين وسلم تسليمًا كثيرًا، وبعد.

فقد كانت الإنسانية في ظلمة ظلماء، وجهالة جهلاء، فأرسل الله تعالى رسوله بالحق ليهديها إلى سعادة الداريْن وأنزل معه الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فالقرآن هداية الله للعالمين، وهو السعادة والنعمة الكاملة، وهو مأدبة الله وكلامه الذى لا تنقضي عجائبه، خير ما تفنى الأعمار لفهم معانيه، ومعرفة أحكامه ودراسة علومه، وأشرفها وأعظمها علم التفسير الذى به يتم فهم المراد وإصلاح العباد.

وبعد أن لحق الرسول ﷺ، بالرفيق الأعلى زاد اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بفهم كتاب الله ومعرفة تفسيره، فأكبوا عليه لدراسة ألفاظه واستخراج درره واستنباط أحكامه بقراءته، ومنهم من اهتم بأسباب نزوله...، وكذا سائر علومه، كما اهتموا بتطبيقه تطبيقًا عمليًا؛ فكانوا قمة في التقوى والورع والتجرد والإخلاص والعلم والعمل، حتى لكأنَّ القرآن واقعًا يتحرك ومجتمعًا ينشر النور إلى الدنيا.

واقتفى التابعون من بعدهم آثارهم فأوقفوا حياتهم على الغوص في معاني القرآن وإدراك مراميه.

ونظرًا لأن حقل بعض الدراسات القرآنية لم تأخذ حقَّها تأصيلًا وتقعيدًا إلا

بعض الكلمات المنيرة لعلمائنا –رحمهم الله– وذلك في ثنايا كتبهم، ولأنَّ بعض الدراسات البحثية عند دراسة علمٍ ما عند المفسرين قد يحصل فيها تداخلٌ في المصطلحات، وإهمالٌ لبعض النظريات دون تفريقٍ بين مؤداها، ومن ثَمَّ بيان معناها.

فقد أسميت هذا البحث "**النَّظمُ والسِّياقُ والتَّناسبُ نظريَّاتٌ وفروقٌ عند المفسِّرين دراسةٌ تأصيليَّةٌ نقديَّةٌ**".

وقد جاءت الدراسة لمناقشة هذه النظريات في اصطلاح المفسرين؛ نظرًا لذكر ألفاظٍ مكان أخرى في التعبير عن وصف الآية أو الجملة من حيث ترابطها أو ترتيبها، فتارةً يطلقون النظم على التناسب، والتناسب على النظم، والنظم على السياق، وبالنظر إلى إطلاق المفسرين لهذه الألفاظ فقد يطلقها البعض نظرًا لعدم المشاحة في الألفاظ، وقد يطلقها البعض نظرًا لأنَّ مُؤدى الألفاظ واحد، وهو إبراز ورعاية الترتيب وبراعة التماسك القرآني، ومدى إضافتها للمادة التفسيرية.

وقد جاءت خطة هذا البحث مكونة من مقدمة وخمسة مباحث كما يلي :-

المقدمة، وتشتمل على أهمية الموضوع، وتمهيدٍ لموضوع الدراسة.

المبحث الأول: التعريف بنظرية النظم.

المبحث الثاني: التعريف بنظرية السياق.

المبحث الثالث: التعريف بنظرية التناسب.

المبحث الرابع: العلاقة والفروق بين النظريات الثلاث "النظم والسياق والتناسب"

المبحث الخامس: استخدام المفسرين النظريات الثلاث وتطبيقها في القرآن الكريم.

وأخيرًا الفهارس.

أما عن منهج البحث :

- فقد اعتمدت في هذا البحث المنهج التأصيلي النقدي[1]، وذلك لإبراز أهمية هذه العلوم ومكانتها، وإطلاقاتها، واستخدام المفسرين لها دون تداخلٍ.

وطريقة العمل فيه:

- بالنسبة إلى الآيات، فستكب في البحث معزوَّة، بأن تذكر السورة التي وردت فيها الآية، ورقم الآية.
- أما الأحاديث، فستُخَرَّج في هوامش الصفحات، كما هي العادة ، ثم إنه في حال كان الحديث من مرويات الشيخين أو أحدهما؛ أكتفى بذكره، وإن كان في غير ذلك من كتب السنة أحيل إلى أشهر الكتب التي خرجته، مع الإشارة إلى درجة الحديث.
- كذلك التعريف بالأعلام التي يحتاج إلى التعريف بهم، أما ما لا يحتاج إلى ذلك، فلم أعرض له لأن تعريف المعرف ليس له فائدة تذكر.
- سأذكر اسم المصدر أو المرجع واسم مؤلفه فقط، مكفيًا بذكر بيانات المصادر والمراجع في الفهرس الخاص بها مجانبة التَّكرار.
- وسأجعل في آخر الدراسةِ الفهارسَ الخاصة بالآيات، وتلك الخاصة بالأحاديث النبوية، ثم فهرس الأعلام التي ورد ذكرها، واحتيج فيها إلى تعريف أو إحالة، ثم فهرس المراجع والمصادر، وأختم ذلك كله بفهرس الموضوعات.

(١) **المنهج النقدي:** هو عملية تقويم للتصحيح والترشيد، ولذلك لا يكون بمعنى النقض؛ الذي هو الهدم الشامل؛ بل هو محاكمة إلى قواعد متفق عليها، أو إلى نسق كلي لبان الخطأ والصواب، أو هو: عملية مشتركة تبدأ بالنظر والتمييز، وتنتهي ببيان الجيد من الرديء، والصحيح من الفاسد. **ينظر:** أبجديات البحث في العلوم الشرعية، لـ/فريد الأنصاري (صـ ١٩٢)، ونقد الصحابة والتابعين في التفسير لـ د/ عبد السلام الجار الله (ص١٦).

أمَّا التمهيد فيحتوي على:

أولًا: أهمية هذه الدراسة، والدراسات السابقة.

تُعدُّ النظريات الثلاث– النظم والسياق والتناسب– من أهم الأدوات في إبراز الإعجاز القرآني، ولذا هناك بعض الدراسات التي اقتحمت حقل هذه العلوم من خلال دراستها مفردة أو من خلال درستها في بعض التفاسير التي أبرزت هذه العلوم، وهذه بعض الدراسات والرسائل التي جاءت في هذا الباب، وهي:

١– نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية : للدكتور/ المثنى عبد الفتاح محمود، دار وائل للنشر، الطبعة الأولى ، سنة : ٢٠٠٨ م .

٢– أثر نظم القرآن في تفسير أبي السعود المتوفي (٩٨٢هـ) دراسة تطبيقية" للباحث/ مسعد أحمد الشايب رسالة دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين بالقاهرة عام ٢٠١٦م.

٣– السياق الدلالي القرآني في التفسير" دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير القرآن العظيم لابن كثير" رسالة ماجستير، للباحث/ عبدالرحمن عبدالله سرور، كلية أصول الدين– قسم علوم القرآن – جامعة أم القرى ٢٠١٥م.

٤– المناسبات في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره لـ/ محمد أحمد يوسف قاسم ، وهى رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين بالقاهرة – جامعة الأزهر–١٩٧٠م.

المبحث الأول: التعريف بنظرية النظم القرآني

ابتدأت الحديث عن النظم، وذلك لأنه اللبنة الأولى للإعجاز القرآني؛ حيث يبدأ نظم كلام من نظم ألفاظه، ثم مطابقة لفظه لمعناه.

وأول من أشار إليه هو الجاحظ في رسائله(١)، ثم تولى ميدانه وأصَّله شيخ البلاغة" عبد القاهر الجرجاني" في دلائل الإعجاز، وكلامه يُعتبر أصلًا لمن جاء بعده كتلميذه الزمخشري الذي أجاد في الحديث عن النظم في تفسيره "الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"

فالنَّظم لغةً: التأليفُ وضمُّ شيءٍ إلى شيءٍ آخرَ، وكلُّ شيءٍ قرنته بآخر فقد نظمته، والنَّظمُ: المنظوم باللؤلؤ والخرز وصْفٌ بالمصدر، يقال: نظمٌ من لؤلؤٍ، والنظم: الجماعة من الجراد، ونَظَمَ اللُّؤْلُؤَ يَنْظِمُه نَظْمًا ونِظَامًا بالكسر، ونظَّمه تَنْظِيمًا: أَلَّفه وجَمَعَه في سِلكٍ فانتظم وتنظَّم، ومنه: نَظَمْتُ الشِّعْرَ ونَظَّمْتُه، ونَظَمَ الأَمْرَ على المَثَلِ، وله نظم حَسَنٌ، ودُرٌّ منظومٌ ومنظمٌ. وانتظمه بالرمح: اختلهُ، وانتظم ساقيه، وجانبيه، وجمعه نُظُم(٢).

والنظم: النظم نظمك خرزًا بعضه إلى بعض في نظامٍ واحدٍ، وهو في كل شيء حتى قيل: ليس لأمره نظام، أي لا تستقيم طريقته. والنظام: كل خيط ينظم به لؤلؤ أو غيره فهو نظام، والجميع نظم، وفعلك النظم والتنظيم(٣).

والنظم اصطلاحًا:

هو تأليف الكلمات مترتبة المعاني متناسقة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل لا تواليها في النطاق وضم بعضها إلى بعض كيفما اتفق، بخلاف نظم

---

(١) **ينظر**: الرسائل للجاحظ (٣١/٤).

(٢) **ينظر**:تاج العروس للزبيدي (٣٣ /٤٩٦) "نَظَمَ"، والمعجم الوسيط لـ/ مجمع اللغة العربية (٩٣٣/٢) "نظم".

(٣) **ينظر**: العين للفراهيدي (١٦٥/٨، ١٦٦) "نظم".

الحروف فإنه تواليها في النطق من غير اعتبار معنى يقتضيه"[١].

ونظم القرآن: عبارتُه التي تشتمل عليها المصاحف صيغةً ولغةً، ويطلق على بعض الكواكبِ المنتظمة، ومنها الثُّرَيَّا[٢].

وهو يريد بمعاني النحو الخصوصيات التي هي مقتضى الحال من التقديم والتأخير وغيرهما، والأغراض هي الأحوال الداعية إليها، أو المعاني الثانوية التي يقصد من الخصوصيات إفادتها.

وقيل: إن عبد القاهر لا يقف في هذا بالنحو عند وظيفته التي قصر أخيرًا عليها، وهي الحكم بالصحة والخطأ في المعاني الأصلية، بل يجعل له حكما أيضا في المعاني الثانوية، ولهذا عرفه ابن جني بأنه "انتحاء كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره؛ ليلتحق من ليس من أهل العربية بأهلها من الفصاحة[٣]" [٤].

ولا بدَّ أن نقف على أقدم نصّ وصلنا في مصطلح النظم، وهو ما سطره الإمام الخطابي[٥] في رسالته "بيان إعجاز القرآن" أثناء حديثه عن أركان الكلام إذ قال: "وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظٌ حاملٌ، ومعنى به قائمٌ، ورباطٌ لهما ناظم، وإذا تأمَّلت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشدَّ تلاؤمًا وتشاكلًا من نظمه، وأما المعاني فلا خفاءَ على ذي عقلٍ

(١) **ينظر**: دلائل الإعجاز للجرجاني (٤٩/١).

(٢) **ينظر**: تاج العروس للزبيدي (٤٩٦/٣٣) "نَظَمَ"، والمعجم الوسيط (٩٣٣/٢) "نظم".

(٣) **ينظر**: الخصائص لابن جني (**٣٥/١**).

(٤) **ينظر**: بغية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدي(٢٥/١).

(٥) **هو** : أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البُسْتِي؛ كان فقيهاً أديباً محدثًا، له مؤلفات منها "غريب الحديث" و"معالم السنن في شرح سنن أبي داود" و"أعلام السنن في شرح البخاري"، توفي سنة (٣٨٨ هـ). **ينظر**: تذكرة الحفاظ (١٤٩/٣)، وفيات الأعيان (٢١٤/٢).

أنَّها هي التي تشهد لها العقول بالتَّقدّم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها"[١].

وفرق ما بين نظم القرآن وتأليفه، فليس يعرف فروق النظم، واختلاف البحث والنثر إلا من عرف القصيد من الرجز...، والخطب من الرسائل، من العجز الذي هو صفة في الذات، فإذا عرف صنوف التأليف عرف مباينة نظم القرآن لسائر الكلام ثم لا يكتفي بذلك حتى يعرف عجزه وعجز أمثاله عن مثله، وأن حكم البشر حكم واحد في العجز الطبيعي، وإن تفاوتوا في العجز العارض[٢].

وذهب عبد القاهر الجرجاني إلى أن النظم هو توخِّي معاني النحو والإعراب، فقال: "واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك. هذا ما لا يجهله عاقلٌ ولا يخفى على أحدٍ من الناس.

واعلم أنَّ مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك، في توخي المعاني التي عرفت: أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدًا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك. نعم، وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين، وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حد يحصره، وقانون يحيط به، فإنه يجيء على وجوه شتى، وأنحاء مختلفة[٣].

ولذلك حروف العطف، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا

(١) **ينظر** : بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (صـ٢٧).

(٢) **ينظر**: الرسائل للجاحظ (٣١/٤).

(٣) **ينظر**: دلائل الإعجاز للجرجاني (٩٣/١).

﴿مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١﴾ الشعراء: ٧٩ – ٨١، فالأول عطفه بالواو التي هي للجمع، وتقديم الإطعام على الإسقاء، والإسقاء على الإطعام جائز لولا مراعاة حسن النظم، ثم عطف الثاني بالفاء؛ لأن الشفاء يعقب المرض بلا زمانٍ خالٍ من أحدهما، ثم عطف الثالث بـ"ثم"؛ لأن الإحياء يكون بعد الموت بزمان، ولهذا جيء في عطفه بـ"ثم" التي هي للتراخي(١).

وإذا كان كذلك، فلنا أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها، ما معناه وما محصوله؟ وإذا نظرنا في ذلك، علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر أو تتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفةً للأول، أو تأكيدًا له، أو بدلًا منه أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفةً أو حالًا أو تمييزًا أو تتوخى في كلام هو لإثبات معنى، أن يصير نفيا أو استفهاما أو تمنيا، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطًا في الآخر، فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى، أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف، وعلى هذا القياس.

وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في "الخبر" إلى الوجوه التي تراها في قولك: "زيد منطلق" و "زيد ينطلق"، و "ينطلق زيد" و "منطلق زيد"، و"زيد المنطلق" و"المنطلق زيد" و"زيد هو المنطلق"، و"زيد هو منطلق"(٢).

إذًا؛ فالنظم عبارة عن توخى معانى النحو فيما بين الكلم، وذلك أن تضع

(١) **ينظر**: المثل السائر لابن الأثير (١٨٦/٢).

(٢) **ينظر**: دلائل الإعجاز للجرجاني (٨١/١).

كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو بأن تنظر في كل باب إلى قوانينه والفروق التي بين معانى اختلاف صيغه، وتضع الحروف مواضعها وتراعى شرائط التقديم والتأخير، ومواضع الفصل والوصل، ومواضع حروف العطف على اختلاف معانيها، وتعتبر الإصابة في طريق التشبيه والتمثيل.

وقد أطبق العلماء على تعظيم شأن النظم، وأن لا فضل مع عدمه ولو بلغ الكلام في غرابة معناه إلى ما بلغ، وأنّ سبب فساده ترك العمل بقوانين النحو واستعمال الشيء في غير موضعه.

ثم قال" عبد القاهر الجرجاني": الجمل الكثيرة إذا نظمت نظما واحدًا فهي على قسمين:

الأوّل: أن لا يتعلّق البعض بالبعض ولا يحتاج واضعه إلى فكر ورويّد في استخراجه، بل هو كمن عمد إلى اللآلئ ينظمها في سلك.

الثاني: أن تكون الجمل المذكورة يتعلّق بعضها ببعض، وهناك تظهر قوّة الطبع، وجودة القريحة، واستقامة الذّهن(١).

ويرى الجاحظ أن البلاغة في النظم لا في المعاني قال: والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي وإنما الشأن في إقامة الوزن وتحيز اللفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك، وهو ما ذهب إليه(٢)، (٣).

فالنظم هو علاقة المعنى باللفظ الموضوع له، وهو الذي يربط اللفظ بالمعنى، ولو جاءت في غير الموضوع في مكانه لاختلَّ المعنى واختلَّ نظمها، ولذلك قالوا إنَّ النظم لا علاقة له بالمعنى، وهو "مما يلبِّس على الناظِر في هذا الموضع ويُغلِّطه، أنه يَستَبْعد أن يُقال: "هذا كلامٌ قد نُظِمتْ معانيهِ"، فالعُرْفُ كأنه

(١) **ينظر**: نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (٨٧/٧-٨٩).

(٢) **ينظر**: الرسائل للجاحظ (٣٦/٤).

(٣) **ينظر**: الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني(١٤٤/١).

لم يَجْرِ بذلك، إلاَّ أَنهم وإنْ كانوا لم يستَعملوا "النظْمَ" في المعاني، قد استعملوا فيها ما هوَ بمعناهُ ونَظيرٌ له، وذلك قولُهم: "إنَّه يُرتِّبُ المعانيَ في نفسِه، ويُنْزِلها، ويَبْني بعضَها على بَعضٍ"، كما يقولون: "يُرتِّب الفروعَ على الأصول، ويُتْبع المعنَى المعنى، ويُلْحِق النظِير بالنظير"[١].

ولننظر إلى الزمخشري –وهو تلميذ عبد القاهر– حينما طبق ذلك، فقال في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ البقرة: ١ – ٢

فقال:" وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقةً هكذا من غير حرف نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذا بعضها بعنق بعض. فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها، وهلم جرًا إلى الثالثة والرابعة. بيان ذلك أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدَّى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال. فكان تقريراً لجهة التحدي، وشدًّا من أعضاده. ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب، فكان شهادةً وتسجيلًا بكماله، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة، ثم أخبر عنه بأنه هدًى للمتقين، فقرّر بذلك كونه يقينًا لا يحوم الشك حوله، وحقًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ثم لم تخل كل واحدة من الأربع، بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق، ونظمت هذا النظم السرى، من نكتة ذات جزالة. ففي **الأولى** الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه. وفي **الثانية** ما في التعريف من الفخامة. وفي **الثالثة** ما في تقديم الريب على الظرف. وفي **الرابعة** الحذف. ووضع المصدر الذي هو "هدى" موضع الوصف الذي هو "هاد" وإيراده منكرًا. والإيجاز في ذكر المتقين[٢].

وفي موضعٍ آخر في قول الله تعالى: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ

(١) **ينظر**: دلائل الإعجاز للجرجاني (٥٣/١).

(٢) **ينظر**: الكشاف للزمخشري (٣٧/١).

فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ **طه: ٣٩**

يقول: "والضمائر كلها راجعة إلى موسى، ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت: فيه هجنة، لما يؤدى إليه من تنافر النظم. فإن قلتَ: المقذوف في البحر هو التابوت، وكذلك الملقى إلى الساحل. قلتُ: ما ضرك لو قلتَ: المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدّى، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر[١]".

فهنا اعتبر الزمخشري أنَّ توخي النحو الإعراب فقط لا يؤدي إلى تجلّي النظم، لأنَّ القاعدة النحوية المستقلة قد تتخلف ولا تنهض بإعراب القرآن، لأنَّ وجوه الإعراب الجائزة التي يجيزها اللسان العربي قد يؤدى إلى فساد النظم، إذًا لا بدَّ من مراعاة ترابط المعنى مع لفظه وترتيبه، والنظم هو ميزة هذا الكلام، وهو هادٍ يقود النحو ويرشده، ويحدد له وجهًا من الإعراب دون وجه[٢].

ويؤيده ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ **القصص: ٨**

فقال الزمخشري: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ ...﴾ الآية: جملةٌ اعتراضيةٌ واقعةٌ بين المعطوف والمعطوف عليه، مؤكدةٌ لمعنى خطئهم. وما أحسن نظم هذا الكلام عند المرتاض بعلم محاسن النظم[٣].

وما تتناوله الرسائل العلمية في باب دراسة علل التعبير إنما يخضع للنظم

(١) **ينظر**: المصدر السابق (٦٣/٣).

(٢) **ينظر**: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري د/ محمد محمد أبو موسى صـ (٢٠٥)

(٣) **ينظر**: المصدر السابق (٣٧/١).

القرآني ونظريته، وكذلك دراسة المفردة القرآنية من حيث موقعها، كذلك يندرج تحت دراسة النظم.

ولذلك حينما ننظر لصنيع بعض المفسرين المدققين لهذا الباب كشيخ الإسلام أبي السعود في تفسيره" إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، نجده عند قوله تعالى:﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ **البقرة: ١٤٤**

يقول: –معللًا إيثار ذكر المسجد الحرام دون الكعبة– في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ﴾ وفي ذكر المسجد الحرامِ دون الكعبة إيذانٌ بكفاية مراعاةِ الجهةِ لأنَّ في مراعاةِ العينِ من البعيد حرجًا عظيمًا بخلاف القريب(١).

فذكر السبب في إيثار المسجد الحرام على الكعبة؛ لما للفظ المسجد الحرام معنى غير الكعبة، وذك لأن الكعبة يعني بها عينها، وذلك فيه من الحرج والمشقة فآثر لفظ المسجد الحرام لهذا المعنى الذي أراده.

فاختيار لفظٍ دون لفظٍ وإيثاره عليه إنما ذلك لمراعاة حسن النظم الكريم وجلاله.

وكذلك في قوله تعالى:﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ طه: ٧١

(١) **ينظر**: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (١/١٧٤).

قال أبو السعود في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ وإيثار كلمةِ في للدلالة على إبقائهم عليها زمانًا مديدًا تشبيهًا لاستمرارهم عليها باستقرار المظروف في الظرف المشتملِ عليه(١).

إذًا فالنظم هو مراعاة النحو والإعراب، وكذلك مراعاة العلاقة بين اللفظ والمعنى الموضوع له اللفظ.

فالذي يربط المعنى باللفظ هو النظم، ويوضح الخطابي لنا رؤيته في النظم بأنه ما يربط اللفظ بالمعنى، ويجعل اللفظ في تناسب وتناسق مع المعنى، فقد صرح –رحمه الله– بأن القرآن إنما صار معجزًا بهذه الأركان الثلاثة فقال:" إنَّ القرآن إنما صار معجزًا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمنًا أصحَّ المعاني"(٢).

ولذلك قد تجد أحد هذه الثلاثة في كلام الناس، لكن أن تجدها مجتمعة في كلام واحد، فهذا لا يكون إلا في كلام العليم القدير.

فالنظم عند الخطابي: هو الذي يكشف عن حسن ارتباط المعاني بألفاظها، وهو ما يكثر الحديث عنه في بيان الوجوه البيانية؛ كاختلاف معاني الألفاظ التي تنعت بالمترادفة عند طائفة من البيانيّين(٣)، والتقديم والتأخير، وفيه ألف أبو هلال العسكري كتابه "الفروق" لأنَّ لكل كلمة معنى، فكان لها نظمٌ لا يصح لغيرها مكانها.

---

(١) **ينظر**: المصدر السابق (٢٩/٦).

(٢) **ينظر**: بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي (صـ٢٧، ٢٩).

(٣)من العلماء مَن قال بوجود الترادف كابن جنِّي كما في الخصائص (٦٢/٣)، والرّماني صاحب كتاب "الألفاظ المترادفة"، والفيروز آبادي الذي ألف كتابًا أسماه "الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف". ومنهم من أنكر وجود الترادف كالإمام البيضاوي في المنهاج (٢٤٢/١)، وابن فارس في كتابه " الصاحبي" وأبو هلال العسكري في كتابه "الفروق في اللغة "(٢٦/١)، وقالوا بأن كل كلمة لها معنى غير الأخرى نحو ذكر القلب مرّة والفؤاد مرة والصدر مرّة، **ينظر**: الراغب الأصفهاني(٥٥/١).

أقسام النظم

وللنظم قسمان:

فقد أشار عبد القاهر إلى أن النظم قسمان: "وذلك لأنَّ نظم الكلام إما أن يتعلق بعضه ببعض أو لا يتعلق، **فالأول:** ما ليس له تعُلقٌ، فإن لم يتعلق البعض بالبعض لم يحتج واضع ذلك النظم إلى فكرٍ ورويَّةٍ في استخراج ذلك النظم؛ بل مَثَلُ ذلك كمن عمد إلى اللآليء فخرطها في سلكٍ، فهو معنى لا تحتاج أن تصنع فيه شيئًا غير أن تعطف لفظا على مثله، كقول الجاحظ: "جنبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسبًا، وبين الصدق سببًا، وحبَّبَ إليك التَّثبُّت، وزيَّن في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عِزَّ الحق، وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذلَّ اليأس، وعرفك ما في الباطل من الذلة، وما في الجهل من القلة[١]" [٢] .

وهذا الضرب لا يستحق الفضيلة إلا بسلام معناه وسلاسة ألفاظه؛ إذ ليس فيه دقيق معنى لا يدرك إلا بثاقب الرأي ودقيق النظر[٣].

ويفهم من ذلك أنَّ من أقسام النظم ما يُكتفى فيه بسلاسة اللفظ وتناسب ألفاظه بعضها ببعض، وانتظام ألفاظها في قالبٍ حسنٍ بغضِّ النظر عن المعنى الوارد في كلٍّ منها.

وأما القسم الثاني: وهو الذي يكون الجمل المذكورة متعلقًا بعضها بالبعض، وهناك يظهر قوة الطبع وجودة القريحة، واستقامة الذهن، كلما كان أجزاء الكلام أقوى ارتباطًا وأشدُّ التحامًا، كان أدخل في الفصاحة[٤].

---

(١) **ينظر**: الحيوان للجاحظ (٣/١).

(٢) **ينظر** : دلائل الإعجاز للجرجاني (١ / ٩٦ ، ٩٧).

(٣) **ينظر**: المصدر السابق (٩٧/١، ٩٨).

(٤) **ينظر**: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي (١٦٩/١، ١٧٠).

وجملة الأمر –كما قال عبد القاهر– أن ههنا كلامًا حسنه للفظ دون النظم، وآخر حسنه للنظم دون اللفظ، وثالثًا قد أتاه الحسن من الجهتين ووجبت له[1].

ومن هنا نجد أنَّهم اعتبروا أن حسن الكلام قد يتأتى بحسن معناه دون لفظه، أو يكون حسنه نابعًا من لفظه دون ارتباطه بالمعنى لعدم تعلقه بما قبله، ومما يزيده بهجة وحسنًا أن يكون حسنه لارتباط لفظه معناه وتعلق به.

(١) **ينظر**: دلائل الإعجاز للجرجاني (٩٩/١).

المبحث الثاني: نظرية السياق

ثنيت الحديث عن السياق لما أنه يربط بين المعاني السابقة والمعاني اللاحقة للآية والآيات والسورة.

فتعريف السياق لغةً: مشتقٌّ من سَاقَ الإبلَ وغيرها يَسُوقُهَا سَوْقًا وسِياقًا، وهو سَائقٌ وسوَّاقٌ، شُدِّدَ للمبالغة، وسَوَّاقٌ يَسُوقُ بِهِنَّ، أي: حادَ يحدُو الإبلَ فهو يسوقهُنَّ بحِدَائِه، وسَوَّاقُ الإبلَ يَقْدُمُهَا، وقد انسَاقَتِ وتَسَاوَقَتِ الإبلُ تسَاوُقًا إذا تتابعت .

والمساوقة: المتابعة كأنَّ بعضها يسوق بعضًا، والأصل في تَسَاوَقَ تتساوق كأنَّها لضعفها وفرط هزالها تتخاذل ويتخلف بعضها عن بعض، وساق إليها الصداق والمهر سياقا وأساقه، وإن كان دراهم أو دنانير، لأنَّ أصل الصداق عند العرب الإبل، وهي التي تساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرهما، ومنه: رُوَيْدَكَ سَوْقُكَ بالقوارير[(١)، (٢)] " .

---

(١) **رُوَيْدًا**: أي أمْهِل وتأَنَّ، وهو تصغير رُودٍ. يقال أرود به إرْوَادًا: أي رفق. ويقال رويد زيد، ورُويدك زيدًا، وهي فيه مصدر مضاف، وهي من أسماء الأفعال المُتعدِّية. **والقوارير**: الزجاج؛ واحدة القوارير من الزجاج، وقوله تعالى:﴿ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ **الإنسان**: ١٦؛ والعرب تسمي المرأة القارورة وتكني عنها بها. صيرهن قَوَارِير لضعف عزائمهن وَكره أَن يسمعن حداءه خيفة صبوتهن. **ينظر**: الفائق في غريب الحديث والأثر للزمخشري (٢٧٦/٢) مادة "رَوَدَ"، (١٧٥/٣)، ولسان العرب لابن منظور (٨٧/٥) مادة "قرّ"، ومجمع الأمثال لأبي الفضل النيسابوري (٣٥١/٢).

(٢) جزءٌ من حديثٍ أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه، رقم "٥٧٩٧" (٢٢٧٨/٥)، ولفظه كما ورد: أنَّ أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: أتى النبي ﷺ على بعض نسائه ومعهن أم سليم فقال:" ويحك يا أنجشة! رويدَك سوقَك بالقوارير"، قال أبو قلابة فتكلم النبي ﷺ بكلمة لو تكلم بها بعضكم لعبتموها عليه قوله: (سوقك بالقوارير) ، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، في كتاب الفضائل ، باب: رحمة النبي ﷺ، رقم: " ٢٣٢٣ " (٤ / ١٨١١) ، ولفظه عن أنسٍ رضى الله عنه : كانت أم سليم مع نساء النبي ﷺ وهنَّ يَسُوقُ بِهِنَّ سَوْاقٌ ، فقال نبي الله ﷺ:" أي أنجشة ! رويدًا سوقك بالقوارير"، و"رويدك" منصوب على الصفة لمصدر محذوف أي سق سوقًا رويدًا ومعناه الأمر بالرفق بهن. **ينظر**: لسان العرب: (١٠ / ١٦٦ – ١٦٩) مادة " سوق " بتصرف.

أمَّا السياق اصطلاحًا :

فقد اختلف الباحثون حول تعريفه، ومرجع اختلافهم هذا إلى أنَّ القدامى من العلماء كان حديثهم حول أهمية السياق وأثره في ترجيح المعاني بعضها على بعضٍ ، ولعلَّ ذلك راجعٌ إلى أنَّه من الواضح الذي لا يحتاج إلى بيان ، لكن صاحبَ رسالةٍ عنوانها " دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن جرير الطبري " عرف السياق بقوله:" تتابع الكلام وتساوقه وتقاوده– ثم قال:– ويمكن تعريف دلالة السياق في التفسير بأنَّها: بيان اللفظ أو الجملة في الآية، بما لا يخرجها عن السباق واللحاق، إلا بدليل صحيح يجب التسليم له"[١].

ويعرَّف أيضًا بأنه: "فهم النَّصِّ بمراعاة ما قبله وما بعده" .

أو هو:" تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية؛ لتبليغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود ، دون انقطاعٍ أو انفصالٍ"[٢] .

وهناك تعريفاتٌ أخرى، ولعلَّ المختار من هذه التعريفات من خلال ما سبق هو: تتابع المفردات والجمل والتراكيب القرآنية المرتبطة لأداء المعنى القرآني[٣] .

(١) **ينظر**: دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير (صـ ٣٥).

(٢) **ينظر**: المرجع نفسه صـ (١٤).

(٣) **ينظر**: السياق الدلالي وأثره في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن كثير (٧١/١).

أركان السياق:

ويتكون السياق من ركنين أساسيين هما "**السباق واللحاق**[(١)]" فبهما يمتزج السياق ويستقيم المعنى السابق بالمعنى اللاحق ولذلك يترجح المعنى بالنظر لكليهما، وهنا مثال يتضح الأمر به، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ **الأعراف:**١٨٧

فقد اختف المفسرون عد قوله تعالى:"﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ ذاهبين في تفسيرها إلى عدة آراء؛ فمنهم من فسرها تفسيرًا عامًا دون أن يقف على دقائق النظم ومعاني السياق، وإنما فسروها بما توحي به نصوص الكتاب من معاني الهول والفزع الذي يعتري الناس في ذلك اليوم، وهو تفسير –على جلالة القائلين به– بمعزلٍ عن التدبر والتفكير في المعاني القرآنية المسلوكة برباط سياقها، والمنظومة ضمن دورها.

(١) السَّباق:" السين والباء والقاف أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على التقديم، يقال سبق يسبق سبقًا"، والسِّباق – بالموحدة– ما قبل الشيء"، واصطلاحًا: ما سبق من الكلام ، ويتوقف فهم معنى ما بعده عليه.

وأما اللحاق:" من لحق، واللام والحاء والقاف أصل يدل على إدراك شيء وبلوغه إلى غيره. يقال: لحق فلانٌ فلانًا فهو لاحق ، وألحق بمعناه... واللَّحق: كلُّ شيءٍ لَحَقَ شيئًا، أو لُحِقَ به" واصطلاحًا: عجز السياق، والسياق –بالمثناة– أعم". يعني أعم من السباق. وبهذا يكون السِّباق واللّحاق مجتمعان يسمّيان "سياقًا".

إذًا فمادة السباق واللحاق تدلُّ على أنهما طرفا السياق ، فالسباق سابقٌ واللحاق لاحقٌ ، وبهما يتكون السياق. **ينظر:** معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ١٢٩)، (٢٣٨/٥)، ولسان العرب(٣٢٧/١٠)، والكليات(٨٠٤/١)، وقواعد الترجيح للحربي(١٢٦/١) بتصرف، ودلالة السياق عند الأصوليين لـ/ سعيد العنزي (٢٧).

ومنهم من فسرها تفسيرًا كشف عن حسن موقعها؛ وجمال موطنها، مُدنيًا تفسيره للعقول والقلوب، وقد كشف أقوال المفسرين، فقال الإمام الرزي في تفسيره:

قال الحسن: ثقل مجيئها على السموات والأرض، لأجل أن عند مجيئها شققت السموات وتكورت الشمس والقمر وانتثرت النجوم وثقلت على الأرض لأجل أن في ذلك اليوم تبدل الأرض غير الأرض، وتبطل الجبال والبحار.

وقال أبو بكر الأصم(١): إنَّ هذا اليوم ثقيل جدًا على أهل السماء والأرض، لأن فيه فناءهم وهلاكهم وذلك ثقيل على القلوب.

وقال قوم: إن هذا اليوم عظيم الثقل على القلوب بسبب أن الخلق يعلمون أنهم يصيرون بعدها إلى البعث والحساب والسؤال والخوف من الله في مثل هذا اليوم شديد.

وقال السدي: ثقلت أي خفيت في السموات والأرض ولم يعلم أحد من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين متى يكون حدوثها ووقوعها.

وقال قوم: ثقلت في السماوات والأرض أي ثقل تحصيل العلم بوقتها المعين على أهل السموات والأرض، وكما يقال في المحمول الذي يتعذر حمله أنه قد ثقل على حامله، فكذلك يقال في العلم الذي استأثر الله تعالى به أنه يثقل عليهم(٢).

---

(١) **هو**: عبد الرحمن بن كيسان، أبو بكر الأصم. فقيه معتزلي مفسر، وكان من أفصح الناس وأفقههم وأورعهم، خلا أنه كان يخطّئ عليا عليه السلام في كثير من أفعاله ويصوّب معاوية في بعض أفعاله. وله (تفسير) الأصول، ومناظرات، وتوي سنة: ٤٧٨هـ. **ينظر**: طبقات المفسرين للداوودي(٢٧٤/١)، وطبقات المعتزلة (صـ٥٦)، ولسان الميزان (٤٢٧/٣).

(٢) **ينظر**: مفاتيح الغيب للرازي(٢٤٢/١٥).

فهذه الخمسة أقوال تقارب الرابع والخامس منها في معنىً واحدٍ، وهو خفاء علم وقت الساعة عن المخلوقات، والأقوال الثلاثة الأولى نافرةٌ عن سياق الآية، غير متلائمة مع ما قبلها وما بعدها، وإليك بيان ذلك:

أولًا: من حيث السباق:

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ استأثرت الآية بلفظ الساعة دلالة على ذلك اليوم الرهيب دون بقية الألفاظ الدالة عليه، فلم يقل الطامة، أو الصاخة، أو الواقعة، وما إلى ذلك من أسماء تدل على يوم القيامة، وهذا الاستئثار لم يأت من الآية باعتبار وقوع الترادف بين الألفاظ، أو باعتبار الجرس الصوتي في الآية، وإنما اختير وانتقى من بين سائر الألفاظ الدالة على هذا المعنى؛ لأمر دلالي اقتضاء سياق الآية، وما كان ليصلح مكانه لفظ آخر.

ذلك أنَّ لفظ الساعة يدل على الوقت المسمى لقيامها الذي أخفاه الله سبحانه وتعالى عن الخلائق، فعندما تُذكر يُلمح هذا المعنى بالدرجة الأولى، من مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ الأنعام: ٣١، وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ يوسف: ١٠٧، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ النحل: ٧٧، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ لقمان: ٣٤، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ الأحزاب: ٦٣، وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ الزخرف: ٨٥

وما إلى ذلك من آيات تؤكد على أن ذكر هذا اللفظ في سياقه يدل على أن المعنى الملحوظ هو كون وقت قيام الساعة في علم الله تعالى، وأن التعبير بها عن هذا اليوم يُصد به المبدأ دون الغاية.

قال الشيخ محمد رشيد رضا:" والتعبير بالساعة عن الوقت الذي يموت فيه الأحياء في هذا العالم، ويضطرب نظامه ويخرب بما يكون فيه من الأهوال يتلو بعضها بعضا، فالساعة هي المبدأ، والقيامة هي الغاية، ففي الأولى الموت والهلاك، وفي الآخرة البعث والجزاء. وبعض التعبيرات في كل منهما يحتمل حلوله محل الآخر في الغالب، وفي المعنى المشترك الذي يعم المبدأ والغاية"، لكن الدقة القرآنية المتناهية في انتقاء الألفاظ تقتضي أن يكون هناك معنى اختصت فيه كل لفظة عن الأخرى(١).

فقوله تعالى: :﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ جاء ليبين وجه سؤالهم، وأن المقصود به الاستعلام عن الوقت، يقول الطاهر ابن عاشور:" وجملة: أيان مرساها في موضع نصب بقول محذوف دل عليه فعل يسئلونك والتقدير: يقولون أيان مرساها، وهو حكاية لقولهم بالمعنى، ولذلك كانت الجملة في معنى البدل عن جملة: يسئلونك عن الساعة"(٢).

قال الألوسي:" وفي تعليق السؤال بنفس الساعة أولا وبوقت وقوعها ثانيا تنبيه على أن المقصد الأصلي من السؤال نفسها باعتبار حلولها في وقتها المعين باعتبار كونه محلا لها، وما في الجواب أعني قوله سبحانه: قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي مخرج على ذلك أيضا أي إن علمها بالاعتبار المذكور عنده سبحانه لا غير فلا حاجة إلى أن يقال: إنما علم وقت إرسائها عنده عزّ وجلَّ ... وقوله سبحانه:﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ بيان لاستمرار خفائها إلى حين قيامها واقناط كلي عن إظهار أمرها بطريق الإخبار(٣)".

(١) **ينظر**: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٣٨٧/٩).

(٢) **ينظر**: التحرير والتنوير لابن عاشور(٢٠١/٩).

(٣) **ينظر**: روح المعاني للألوسي (١٢٣/٥).

ثانيًا: من حيث اللحاق:

قوله:﴿ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ ﴾ أي: فجأة على حين غفلة، من غير توقع ولا انتظار، ولا إشعار ولا إنذار[١] "، وجملة:﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ مستأنفة جاءت تكملة للإخبار عن وقت حلول الساعة، لأن الإتيان بغتة يحقق مضمون الإخبار عن وقتها بأنه غير معلوم إلا لله، وبأن الله غير مظهره لأحد، فدل قوله: ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ على أن انتفاء إظهار وقتها انتفاء متوغل في نوعه بحيث لا يحصل العلم لأحد بحلولها بالكنه ولا بالإجمال، وجملة: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا﴾ مؤكدة لجملة: "يسئلونك عن الساعة" ومبينة لكيفية سؤالهم فلذينك فصلت[٢].

ومعنى حفيٌّ:" أي مبالِغٌ في العلم بها فعيلٌ من حِفِيَ وحقيقتُه كأنك مبالغٌ في السؤال عنها فإن ذلك في حكم المبالغةِ في العلم بها لِما أن مَنْ بالغ في السؤال عن الشيء والبحثِ عنه استحكم علمُه به ومبنى التركيبِ على المبالغة والاستقصاءِ ومنه إحفاءُ الشاربِ، واحتفاءُ البقل أي استئصالُه...﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أمر ﷺ بإعادة الجوابِ الأول تأكيداً للحكم وتقريراً له وإشعارًا بعلته على الطريقة البرهانيةِ بإيراد اسمِ الذات المُنبىءِ عن استتباعها لصفات الكمالِ التي من جملتها العلمُ وتمهيداً للتعريض بجهلهم بقوله تعالى:﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ أي لا يعلمون ما ذُكر من اختصاص علمِها به تعالى[٣].

قال الطبري: وأولى ذلك عندي بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: ثقلت الساعة في السموات والأرض على أهلها، أن يعرفوا وقتها وقيامها؛ لأن الله أخفى

(١) **ينظر**: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٣٩١/٩) .

(٢) **ينظر**: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٤/٩).

(٣) **ينظر**: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣٠١/٣، ٣٠٢).

ذلك عن خلقه، فلم يطلع عليه منهم أحدًا. وذلك أن الله أخبرَ بذلك بعد قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾، وأخبر بعده أنها لا تأتي إلا بغتة، فالذي هو أولى: أن يكون ما بين ذلك أيضًا خبرًا عن خفاء علمها عن الخلق، إذ كان ما قبله وما بعده كذلك(١).

وقد ذهب ابن عاشور –رحمه الله– إلى أن المقصود بالثقل في الآية: "عظم ما يحدث فيها من الحوادث المهولة في السماوات والأرض، من تصادم الكواكب، وانخرام سيرها، ومن زلازل الأرض وفيضان البراكين، والبحار، وجفاف المياه، ونحو ذلك ممَّا ينشأ عن اختلال النظام الذي كان عليه سير العالم(٢)"، واستدل على قوله هذا بأن الثقل لا يسند إل الزمان وإنما يسند إلى الأحدث، وإذا أسند إلى الزمان؛ فإسناده إليه إنما هو باعتباره ظرفًا للأحداث؛ فقال: "ووصف الساعة بالثقل باعتبار ما هو مظروف في وقتها من الحوادث، فوصفها بذلك مجاز عقلي، والقرينة واضحة، وهي كون الثقل بمعنى الشدة لا يكون وصفا للزمان، ولكنه وصف للأحداث، فإذا أسند إلى الزمان، فإسناده إليه إنما هو باعتباره ظرفا للأحداث"(٣).

وعلة تبنِّيه هذا الرأي تفسيره الثقل بالشدة، فهو يرى أنَّ الثقل مستعار للشدة والمشقة، وفي ذلك يقول: "والثقل مستعار للمشقة كما يستعار العظم والكبر، لأن شدة وقع الشيء في النفوس ومشقته عليها تخيل لمن خلت به أنه حامل شيئًا ثقيلًا(٤)".

(١) **ينظر**: جامع البيان للطبري (٢٩٦/١٣، ٢٩٧).
(٢) **ينظر**: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٣/٩، ٢٠٤).
(٣) **ينظر**: المصدر السابق (٢٠٤/٩).
(٤) **ينظر**: المصدر السابق (٢٠٤/٩).

ولهذا علينا تحقيق معنى الثقل أولًا، ومن ثم بيان كونه مستعارًا لكذا أو لكذا، لا العكس، والحقُّ أن الثقل مستعار للخفاء لا للشدة، وذلك من حيث اللغة ودلالة السياق على ذلك؛ فقد جاء في لسان العرب: "ثقلت في السماوات والأرض: خفيت، والشيء إذا خفي عليك ثقل"(١).

وقال السدي: "ثقلت أي خفيت"(٢) ، وإذا احتملت اللغة المعنيين رجح السياق أحدهما؛ ولذا نجد أن شيخ الإسلام أبا السعود قد فطن إلى هذا المعنى السياقيِّ الذي تقتضيه الآية؛ فذهب إلى القول بأن المقصود من الثقل الخفاء؛ فقال– بعد ذكر الأقوال في معنى الثقل: "والأولُ هو الأنسبُ –أي كبُرت وشقتْ على أهلهما من الملائكة والثقلين كلٌّ منهم أهمّه خفاؤُها وخروجُها عن دائرة العقولِ وقيل عظُمت عليهم حيث يُشفقون منها ويخافون شدائدَها وأهوالَها وقيل ثقلت فيهما إذ لا يُطيقها منهما ومما فيهما شيءٌ أصلاً – بما قبله وبما بعده من قوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ فإنَّه استئنافٌ مقررٌ لمضمونِ ما قبله فلا بُدَّ من اعتبار الثِقَل من حيث الخفاءُ أي لا تأتيكم إلا فجأةً على غفلة"(٣)، فهذ ما يرجحه سياق الآية من سباقه ولحاقه، وغير هذا القول من الآراء يُعدُّ مرجوحًا.

(١) **ينظر**: لسان العرب لابن منظور(٨٦/١١).

(٢) **ينظر**: مفاتيح الغيب للرازي (٤٢٤/١٥).

(٣) **ينظر**: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣٠١/٣).

أنواع السياق

وللسياق أنواعٌ من حيث علاقة الأجزاء، فهناك سياق السورة الذي يشكل وحدةً عضويةً متكاملةً متتاليةً، وسياق المقطع الذي يشكل محورًا أساسيًا من محاور سياق السورة، وسياق الآية الذي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بسياق المقطع، حيث يشكل سياق الآية لبنة في بناء سياق المقطع، وتتحد مباني الآية حول معي مقطعها ويشكل المقطع عضوًا أساسيًا في جسم السورة، حيث تدور جمي المقاطع حو فلك السورة الواحدة، ألا وهو موضوعها الذي سيقت المعاني والموضوعات لأجله.

فالأول: سياق السورة ذات المقطع الواحد:

وهو بمعنى نزول القرآن في قضية واحدة– مقطع واحد– طالت أم قصرت، وعليه أكثر سور المفصل، وذلك سورة الكوثر فإنها نازلة في مقطع واحد(١).

والثاني: سياق السورة متعدد المقاطع:

وهو سياق يأخذ في إبراز تشخيص الموضوع القرآني، وخصوصًا في السور الطوال والمئين وبعض المفصل، وهو نوع قلَّ اعتناء المفسرين به، وذلك كسورة العلق التي جاءت في مقطعين؛ الأول إلى قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ **العلق**: ١ ،إلى قوله:﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ **العلق**: ٥، والثاني: ما بقي إلى آخر السورة(٢).

والثالث: سياق أخص "سياق الآية":

وهو سياق يقوم على مقطع واحد وهو الآية فقط، ويكتمل سياقه ومعناها دون مشارك غيرها من الآيات المجاورة لها، وذلك كآية الكرسي.

---

(١) **ينظر**: الموافقات للشاطبي(٢٦٨/٤).

(٢) **ينظر**: المصدر السابق (٢٦٨/٤).

الفرق بين سياق السورة والوحدة الموضوعية للسورة

ومن خلال ما سبق ذكره؛ لا بد من بيان الفرق بين سياق السورة والوحدة الموضوعية للسورة، فإن سياق السور يدخله التفسير التحليلي؛ فالباحث فيه يعتمد اعتمادًا كبيرًا على الجانب التحليلي، فيحلل ويفصل الآيات لإبراز المعاني المتصلة بالموضوع الذي تدور عليه السورة، وبيان وجه التناسب والاتصال بين نظم معاني الآيات، وبالتالي تحديد موضوع السياق، فعرض الموضوع في سياق السورة يكون تحليليًا تفصيليًا من مبدئها حتى منتهاها.

وليس الحال كذلك في دراسة الوحدة الموضوعية للسورة، فيكفي فيها البحث الإجمالي دون التفصيلي، ويعتمد الباحث في إبراز الموضوع على شكل نقاطٍ عامةٍ تتضمن كل واحدة منها جزءًا من الموضوع العام للسورة.

فدراسة سياق السورة يعتمد على الجاب العلمي التفسيري التفصيلي، وذلك لإبراز وحدة المعنى من خلال الدلالات السياقية، وذلك كدراسة سورة الأحزاب دراسة تحليلية لـ د/ محمد محمد أبو موسى.

أما الوحد الموضوعية للسورة فهي تعتمد على الجانب الفكري النظري؛ لإبراز الوحدة العضوية للسورة، وذلك كما يصنعه صاحب تفسير المنار في نهاية كل سورة، والشيخ/ محمد الغزالي السقا في تفسيره" نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم".

المبحث الثالث: نظرية التناسب

ويأتي الحديث ثالثًا عن علم التناسب القرآني؛ لأنه يربط بين المعاني المتقاربة لفظًا ومعنىً وكذلك المتباعدة، فتجده يربط بين أطراف السور وفواتحها وخواتمها وبين خاتمة السورة وفاتحة غيرها.

أمَّا عن مصطلح "المناسبات القرآنية" فهو مركَّبٌ وصفيّ"[(١)].

فكلمة "**المناسبات**": جمع مناسبة، وهي "نَسَبَ"، قال ابن فارس"[(٢)]:" النون والسين والباء كلمةٌ واحدةٌ قياسها اتصال شيءٍ بشيءٍ، ومنه النَّسَب، سمِّيَ لاتصاله وللاتصال به، تقول: نَسَبْتُ أَنْسِبُ، وهو نسيبُ فلانٍ، ومنه النَّسيبُ في الشَّعْرِ إلى المرأة، كأنَّه ذكر يتصل بها؛ ولا يكون إلا في النساء. تقول منه: نَسَبْتُ أَنْسِبُ، والنَّسيبُ: الطريق المستقيم، لاتصال بعضه من بعض"[(٣)].

فعلم المناسبات –عمومًا– هو :

"علمٌ تُعرَفُ به علل الترتيب"[(٤)] [(٥)]"، وموضوعه : أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث مناسبته من حيث الترتيب ، وثمرته : الاطلاع على الرتبة

---

(١) العَلَم الوصفي هو: العلم المركب من موصوفٍ وصفةٍ، مثل:" محمد الفاضل" فقد اعتبره النحاة ملحقًا بالمفرد، فيجري على الموصوف الإعراب على حسب الجملة، وتتبعه الصفة في علامة الإعراب، ولعلَّ الأفضل أن يكون ملحقا في حكمه بالمركب الإسنادي فيحكي، منعًا من اللَّبس، ومنع اللبس من أهم الأغراض التي تحرص عليها اللغة. **ينظر**: أوضح المسالك لابن مالك (١٨/٤)، والنحو الوافي لعباس حسن (٣٠٢/١).

(٢) **هو**: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين: من أئمة اللغة والأدب، قرأ عليه البديع الهمذاني والصاحب ابن عباد وغيرهما من أعيان البيان. توفي بالري ، وإليها نسبته. من تصانيفه: مقاييس اللغة، والمجمل، و"جامع التأويل" في تفسير القرآن. توفى سنة : ٣٩٥. **ينظر**: وفيات الأعيان لابن خليكان (١/ ١١٨، ١١٩)، وشذرات الذهب لابن العماد (٤٨٠/٤).

(٣) **ينظر**: مقاييس اللغة لابن فارس مادة "نسب" (٤٢٣/٥، ٤٢٤).

(٤) **ينظر**: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١ / ١١٣).

(٥) معرفة علل الترتيب تُعدُّ معرفة ظنِّيّة، لا قطعية جازمة ، إلا إذا كان هناك وحيٌ يخبرنا عن علة الترتيب ، وعن سرِّ وضع هذه الآية في هذا الموطن دون غيره ، أو إن كان هناك إجماع من العلماء بكتاب الله تعالى بهذه العلل ، فعندئذٍ يقال : إنَّ علّة الترتيب هذه لا غير ، فهي مسألة ظنيّة ، بحال الاجتهاد والنظر فيها متَّسِعٌ فيها باتساع النظر في كتاب الله عزّ وجلّ .

التي يستحقُّها الجزء بسبب ما له بما وراءه ، وما أمامه من الارتباط والتعلُّق الذي هو كلحمة النسب"[١].

والمقصود أنَّ ما يعرف بسببه لم قدَّم شيئًا على شيء ، ولم كان هذا سابقًا وهذا لاحقًا ؛ فهو من باب التناسب .

وأما علم المناسبات القرآنية – بوجهٍ خاص–فهو كما ذكر الإمام البَقَاعي"[٢]: علمٌ تعرف به أسرار ترتيب القرآن، وهو سرٌّ بلاغته، لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال"[٣].

ويمكن القول: إنَّ علم المناسبات القرآنية هو:

العلم الذي تدرك به المقامات والأحوال المقتضية الإتيان بكل جزئيَّة في موضوعها الملائم لها مع بقية أخواتها"[٤].

أو" علمٌ تعرف به علل الترتيب بين أجزائه بعضها إثر بعضٍ، وهو سرٌّ من أسرار بلاغته لأدائه إلى تحقيق مطابقة معانيه لما يقتضيه الحال"[٥] ".

أو بأنَّها : وجوه الارتباط بين أجزاء القرآن الكريم بعضها ببعض– ، لكان أكثر دقة وشمولًا"[٦].

---

(١) **ينظر**: نظم الدرر للبقاعي (٥/١).

(٢)**البَقاعي هو**: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط –بضم الراء وتخفيف وفتح الباء– بن علي بن أبي بكر البقاعي، أبو الحسن برهان الدين: مؤرخ أديب، أصله من البقاع في سورية، وسكن دمشق ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة، من مؤلفاته: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، وسر الروح، وتوفي بدمشق سنة : ٨٨٥هـ. **ينظر** : شذرات الذهب لابن العماد (٥/ ٥٠٩)، وطبقات المفسرين للأدنه وي (٣٤٧/١).

(٣) **ينظر**: نظم الدرر للبقاعي (٥/١)، والإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره (صـ٣١) للدكتور/ محمد أحمد يوسف القاسم.

(٤) **ينظر**: التناسب القرآني عند البقاعي لـ / توفيق محمد سعد (ص ٧٩) .

(٥) **ينظر**: الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره (ص ٣١).

(٦) علم المناسبات في القرآن / محمد عبد العزيز الخضيري (ص ١٨) .

العلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي :

ويبدو ممَّا مرَّ توافق المعنى اللغوي مع المعنى الاصطلاحي للمناسبة، فكلاهما يعني: أنَّ الآية وجارتها شقيقتان، يربط بينهما رباطٌ من نوعٍ ما، كما يربط النسب بين المتناسبين، غير أنَّ ذلك لا يعني أن تكون الآيتان أو الآيات متماثلة كلَّ التماثل، بل ربما يكون بينهما تضاد"[(١)] أو تباعد في المعنى.

ومعرفة المناسبات والربط بين الآيات ليست أمرًا توقيفيًّا، ولكنها تعتمد على اجتهاد المفسِّر ومبلغ تذوقه لإعجاز القرآن وأسراره البلاغية وأوجه بيانه الفريد، فإذا كانت المناسبة دقيقة المعنى، منسجمة مع السياق، متفقة مع الأصول اللغوية في علوم العربية، كانت مقبولة لطيفة.

ولا يعني هذا أن يلتمس المفسر لكل آية مناسبة، فإن القرآن الكريم نزل مُنَجَّمًا حسب الوقائع والأحداث، وقد يدرك المفسر ارتباط آياته وقد لا يدركها، فلا ينبغي أن يعتسف المناسبة اعتسافًا، وإلَّا كانت تكلُّفًا ممقوتًا"[(٢)].

ويجدر أنْ يُذكر في هذا المقام؛ أنَّ مصطلح المناسبات، المصوغ على وزن المفاعلة، يدلُّ على قوة العلاقة، والاتصال الوثيق، المتولَّد من أطرافٍ متكاثرةٍ، وقع بينها التناسب، ويتجلَّى هذا التناسب تارةً واضحًا جليًّا، لا يحتاج إلى كبير فكرٍ، ولا إلى كثيرِ معالجةٍ، ويدقُّ تارةً أخرى، حتى لا يكاد يدركه إلا نافذ بصيرة متوقد ذهن، يرافقه التوفيق من منزل هذا الكتاب سبحانه وتعالى.

---

(١) **التضاد** هو: وجود صفتين وجوديتين يتعاقبان في موضعٍ واحدٍ، يستحيل اجتماعهما، كالسواد والبياض، والفرق بين الضدين **والنقيضين:** أنَّ النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان كالعدم والوجود، والضدان لا يجتمعان ولكن يرتفعان، كالسواد والبياض، كما في قوله تعالى :﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾ القيامة: ٣١-٣٢ فقابل بين: صدق، وكذب. وبين صلى: الذي هو الإقبال على الله تعالى، والتولى: الذي هو الإعراض عنه. **ينظر:** التعريفات للجرجاني (١٣٧/١)، والمواقف للإيجي (٤١٤/١).

(٢) **ينظر:** نظرية السياق القرآني (صـ ٨٨).

وعلم المناسبة أمرٌ معقولٌ إذا عُرِضَ على العقول تلقَّته بالقبول"[١].

ولذلك وضع العلماء له ضوابط عقلية كما قال الزركشي في البرهان في علوم القرآن: منها:" وحدة الموضوع، سواء في ذلك وحدة موضوع السورة ذات الموضوع الواحد، أم وحدة موضوع المقطع، ووجود رابط من الروابط؛ عامٌّ"[٢] أو خاصٌّ"[٣]، عقليٌّ"[٤] أو حسِّيٌّ"[٥]، أو خياليٌّ"[٦]، أو غير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني"[٧] ؛ كالسبب"[٨]، والمسبَّبِ"[٩]، والعلة"[١٠]

(١) **ينظر**: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣٥/١).

(٢) **العام**: هو ما عم شيئين فصاعدًا من قوله: عممت زيدًا وعمرًا بالعطاء، وعممت جميع الناس بالعطاء. أو: هو اللفظ المستغرِق لجميع ما يصلح له بحسب وضع واحد. **ينظر**: المحصول للرازي (٥١٣/٢)، إرشاد الفحول للشوكاني (١/ ٢٨٧) .

(٣) **الخاص**: ما يقابل العام ، فهو الذي لا يستغرق الصالح له من غير حصر، أو اللفظ الدال على مسمى واحد. **ينظر**: إرشاد الفحول للشوكاني (٣٥٠/١).

(٤) **العقلي**: ما يتصل بالذهن والتفكير من ماهيات غيبية عن الحواس. **ينظر**: التعريفات للجرجاني (١١٥/١)، والمعجم الفلسفي د/ جميل صليبا (١١٥/١).

(٥) **الحسي**: مجموعة الأشياء التي يمكن أن تدرك بالحواس. **ينظر**: المصادر السابقة.

(٦) **الخيالي** "مفرد": اسم منسوب إلى خيال : ليس له وجود حقيقي ويتعذر تحقيقه. **ينظر**: التعريفات للجرجاني (١١٧/١)، ومعجم اللغة العربية المعاصرة (٧١٥/١)، والمعجم الفلسفي (١١٥/١).

(٧) **التلازم الذهني**: وهو ما يلزم من حصول المعنى الموضوع له في الذهن حصوله فيه، كالتلازم الذي بين الإنسان والضحك، إذ يلزم من حضور معنى الإنسان وهو "الحيوان الناطق" في الذهن حضور معنى الضحك فيه. **ينظر**: إرشاد الفحول للشوكاني (١٧٢/١).

(٨) **أمّا السبب** : في اللغة اسم لما يتوصل به إلى المقصود . وفي الاصطلاح : عبارة عما يكون طريقًا للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه . **ينظر**: التعريفات (١ /١١٧).

(٩) **والمسبب**: هو حكمة قصدها الشارع بتشريع السبب. فهو نتيجة للفعل المأمور به يقصد الشارع حصولها بحصول الفعل، وهو نتيجة للفعل المنهي عنه يقصد الشارع عدم حصولها بعدم الفعل المتسبب بها. **ينظر**: الموافقات (٢ / ٢١٧).

(١٠) **العلة في اللغة**: اسم لما يتغير الشيء بحصوله. **وفي الاصطلاح**: أنها الوصف المعرف للحكم بوضع الشارع. وقيل: المعني الجالب للحكم، وقد تكون العلية عقلية وهي ما استقل العقل بإدراكها. وقد تكون العلة شرعية، وهي ما توقف العقل في إدراكها. **ينظر**: قواطع الأدلة في الأصول لأبو المظفر للمروزي (١٤٠/٢)، وإرشاد الفحول (٢ /١١٠).

والمعلول"(١)، والنظيرين" (٢)،والضدين"(٣) ونحوه ""(٤).

ونجد الإمام السيوطي –رحمه الله– يقرّر قاعدةً في بيان وجه المناسبة، وأنَّه متوقِّفٌ على معرفة سياقها؛ فقال:

" قاعدةٌ: قال بعض المتأخرين الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو: أنك تنظر إلى الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه السامع إلى الأحكام، أو اللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا فعلته تبيَّن لك وجه النظم مفصلًا بين كلِّ آيةٍ وآيةٍ في كلِّ سورة ""(٥)، "(٦) اهـ .

---

(١) **المعلول:** هو محل العلة، وهو المحكوم فيه كالخمر للإسكار والبر للطعم، فإن المعلول من وجد فيه العلة، كالمضروب والمقتول وكالمريض المعلول ذاته، كما في قوله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ الأنعام : ١٠٩. **ينظر**: البحر المحيط في أصول الفقه (١٠٩/٤).

(٢) **المراد بالنظيرين:** هما المشتركان في الأوصاف، وهو يعرف بقياس الدلالة وهو الاستدلال بأحد المعلولين على الآخر، وهو أن يُستدل بأحد النظيرين على الآخر، ومثال مقابلة النظيرين مقابلة السنة والنوم في قوله تعالى: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ البقرة: ٢٥٥، لأنهما جميعا من باب الرقاد المقابل باليقظة. **ينظر**: الورقات للجويني (٢٦/١)، والبحر المحيط في أصول الفقه (٤٩/٤).

(٣) **الضدان:** سبق التعريف به (صـ٢٣).

(٤) **ينظر**: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣٥/١).

(٥) **ينظر**: الإتقان في علوم القرآن (٣٧٦/٣).

(٦) ذكر هذه القاعدة البقاعي في نظم الدرر عن شيخه أبي الفضل المشدالي. **ينظر**: نظم الدرر (١٧/١، ١٨).

أنواع التناسب

وبعد، فإنه لا بدَّ من الإشارة إلى أن مصطلح "المناسبات القرآنية" يحوي أنواعًا متعددةً تندرج تحته، وأشهرها[١]:

- المناسبات بين الآيات في السورة الواحدة ، وهذا النوع يحوي ضمنه صورًا مختلفة ، من مثل:
- المناسبة في الآية الواحدة.
- المناسبة بين الآية وما سبقها؛ إما مباشرة أو عمومًا أو آية سبقتها بآيات عديدة[٢].
- المناسبة في اختيار الكلمة والنظم؛ من تقديم وتأخير، وذكر وحذف وتعريف وتنكير، وغير ذلك.
- المناسبة بين النجوم الدروس في السورة الواحدة.
- المناسبة بين اسم السورة والقصة الواردة فيها.
- المناسبة بين فاتحة السورة وموضوعاتها.
- المناسبة بين خاتمة السورة الواحدة وموضوعاتها.
- المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها.
- المناسبة بين اسم السورة وآياتها.
- المناسبات بين السور، ويتضمَّن هذا النوع مجموعة من الصور، منها:

- المناسبة بين موضوعي السورتين.
- المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمة ما قبلها.
- المناسبة بين فاتحة السورة وموضوع ما قبلها.

---

(١) المناسبات بين الآيات والسور (ص١٣) بحثٌ لـ / سامي عطا حسن ، وعلم المناسبات بين السور والآيات (ص٦٦) لـ / مصطفى الباجقني .

(٢) **ينظر** : مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (١ / ٩٧) .

- المناسبات بين الفواتح المتشابهة للسور.

● المناسبات الموضوعية، من مثل:

- المناسبة بين الآيات المتشابهة، ويدخل فيه ما يسمَّى بالتفسير الموضوعي.
- المناسبة بين القصَّة والقصَّة.
- المناسبة بين الحُكم والحكم، والمَثل والمَثل.
- المناسبة بين الجزاء والعمل.
- المناسبات في التَّكرار أو فيما ظاهره التَّكرار، وغير ذلك"[1].

ومن أمثلة ذلك:

علاقة الفاتحة بالخاتمة، أنه استفتح سبحانه وتعالى سورة المؤمنون ببيانِ فلاحِ المؤمنين فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ المؤمنون:١، وختم السورة بضدِّ هذا المعنى ومقابله، حيث قال سبحانه :﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١١٧﴾ المؤمنون: ١١٧

قال الزمخشري: جعل فاتحة السورة قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، وأورد في خاتمتها إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ فشتَّان ما بين الفاتحة والخاتمة"[2].

وقال أبو السعود رحمه الله: بُدئتِ السُّورةُ الكريمةُ بتقريرِ فلاحِ المُؤمنين وخُتمتْ بنفيِ الفلاحِ عن الكافرينَ"[3].

فشتَّان ما بين إثبات الفلاح، والفوز للمؤمنين، ونفيه عن الكافرين.

وكذلك علاقة خاتمة السورة لمضمونها كاملًا كما في آخر السورة الرحمن

---

(١) **ينظر**: تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي (٥٤/١)، **ينظر**: مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور لـ/ عادل بن محمد أبو العلاء (٨٨/١– ١٠٣)، ومباحث في التفسير الموضوعي (١/ ٦٨) وما بعدها. لـ/ مصطفى مسلم.

(٢) **ينظر**: الكشاف للزمخشري (٢٠٧/٣).

(٣) **ينظر**: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (١٥٤/٦).

عند قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ الرحمن: ٧٧– ٧٨: تنزيهٌ وتقديسٌ

له تعالى، فيه تقريرٌ"[١] لما ذكر في السورة الكريمة من آلائه الفائضة على الأنام، أي: تعالى المفصلة، وارتفع عمَّا لا يليق بشأنه من الأمور التي من جملتها جحود نَعمَائِهِ وتكذيبها، وإذا كان حال اسمه بملامسة دلالته عليه، فما ظنُّكَ بذاته الأقدسِ الأعلى؟"[٢].

فهذه المناسبة جاءت تقريرًا لما في السورة الكريمة.

–وكذلك في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ البقرة: ٢٨٥

قال الإمام الرازي: أنه بدأ في السورة بمدح المتقين ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ **البقرة: ٣**، وبيَّن في آخر السورة أنَّ الذين مدحهم في أول السورة هم أمة محمد ﷺ، فقال: والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحدٍ من رسله، وهذا هو المراد بقوله في أول السورة الذين يؤمنون بالغيب"[٣].

ومن مناسبة فواتح السور بخواتيم غيرها ما جاء في أول سورة الكهف

---

(١) **التقرير**: وهو تأكيد الكلام بما يرفع احتمال المجاز والتخصيص كقوله تعالى:﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ **الحجر**: ٣٠، فقرَّر معنى العموم من الملائكة بذكر الكل حتى صار بحيث لا يحتمل التخصيص. **والتأكيد:** هو تابعٌ يقرِّرُ أمر المتبوع في النسبة أو الشمول، أو: هو عبارة عن إعادة المعنى الحاصل قبله، والتأكيد اللفظي: هو أن يكرر اللفظ الأول. **ينظر**: التعريفات (٤٧/١، ٥٠).

(٢) **ينظر**: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (١٨٧/٨).

(٣) **ينظر**: مفاتيح الغيب للرازي(١٠٦/٧).

ومناسبتها خاتمة سورة الإسراء، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١﴾ الكهف:١

قال البَقاعي: "لما ختمت تلك بأمر الرسول ﷺ بالحمد عن التنزه عن صفات النقص لكونه أعلم الخلق بذلك، بدئت هذه بالإخبار باستحقاقه سبحانه الحمد على صفات الكمال التي منها البراءة عن كل نقص، منبها بذلك على وجوب حمده بما شرع من الدين على هذا الوجه الأحكم بهذا الكتاب القيم الذي خضعت لجلاله العلماء الأقدمون، وعجز عن معارضته الأولون والآخرون، الذي هو الدليل على ما ختمت به تلك من العظمة والكمال، والتنزه والجلال، فقال ملقنا لعباده حمده، معلما لهم كيف يثنون عليه، مفقِّهًا لهم في اختلاف العبارات باختلاف المقامات"[1] ".

(١) **ينظر**: نظم الدرر للبقاعي(٢/١٢).

المبحث الرابع: العلاقة والفروق بين النظريات الثلاث "النظم والسياق والتناسب"

وفي هذا الموطن يستدعي المقام لتوضيح الفرق بين بعض المصطلحات التي تتداخل مع بعضها نظمًا وسياقًا وتناسبًا ، فيعدُّها بعضهم مرادفة له، بل من المفسّرين –كالإمام الرازي مثلًا– عندما يطلقونها يتجوزون في الاستخدام فيقصدون بها السياق، أو مصطلح النَّظم"[(١)].

وقبل البدء في بيان الفرق بين هذه المصطلحات هناك ملحوظة يجب تسجيلها، وهي: أنَّ المفسرين إذا أطلقوا مصطلح النظم قاصدين به السياق، لا يعني أنهم لا يفرِّقون في ذلك بين السياق والنظم والمناسبات، بل إنهم يميزون بينها أشدَّ التمييز، والذي يدفعهم لإطلاق مصطلح النظم، والمقصود به السياق التجوُّز في العبارة لا غير، فهذا شيخ المفسّرين الإمام الطبري"[(٢)] – رحمه الله – يعطف السياق على النظم مغايرةً بين معنييهما، فيقول عند قوله تعالى:﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ آل عمران : ٧٣، قل: يا محمد، للقائلين ما قالوا من الطائفة التي وصفتُ لك قولها لأتباعهم من اليهود "إن الهدى هدى الله"، إنَّ التوفيقَ توفيقُ الله والبيانَ بيانُه، و" إنَّ الفضل بيده يؤتيه من يشاء" لا ما تمنيتموه أنتم يا معشر اليهود.

وإنَّما اخترنا ذلك من سائر الأقوال التي ذكرناها، لأنَّه أصحَّها معنًى، وأحسنها استقامةً، على معنى كلام العرب، وأشدُّها اتساقًا على نظم الكلام

---

(١) كالزمخشري في تفسيره (٤/ ٢٣٢)، وكالرازي في تفسيره (٤/ ٩ ، ٦ / ١٦ ، ٧ /٣٩، ٩ /٩٤).

(٢) **هو**: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري الإمام أبو جعفر رأس المفسرين على الإطلاق أحد الائمة جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، فكان حافظًا لكتاب الله بصيرًا بالمعاني فقيهًا في أحكام القرآن عالمًا بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها ناسخها ومنسوخها عالمًا بأحوال الصحابة والتابعين بصيرًا بأيام الناس، ومن مؤلفاته: تفسيره جامع البيان، وتاريخ الأمم والملوك، وتوفي سنة:٣١٠هـ. **ينظر**: طبقات المفسرين للسيوطي (٨٢/١).

وسياقه، وما عدا ذلك من القول، فانتزاع يبعُد من الصحة، على استكراه شديدٍ للكلام""[1].

وهذا شيخ الإسلام أبو السعود العمادي – رحمه الله – أثناء تفسيره ذكر مصطلح النظم والسياق، فقال عند قول الله تعالى:﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ البقرة:٧٨ " وحمل الكتاب على الكتابة يأباه سباق النظم الكريم وسياقه""[2]، أي: وسياق النظم الكريم يأباه أيضًا، وهذا يدلُّ على أن النظم شيء، والسياق شيء آخر.

ومثلهما علَّامة الرافدين الإمام الألوسي –رحمه الله– يقول: "وسياق النظم الكريم وسباقه ظاهر""[3]، وعبارته ظاهرة في أنَّ المراد من السياق شيءٌ غير المراد بالنظم.

وبعد الحديث عن النظريات الثلاث، وبيان مهمة كل واحدة منها، يتضح لنا أن هذه العلوم تتقارب لا تتداخل، وتتكامل لا تتعارض، فعند النظر في الفرق بين النظم والسياق، نجد أنَّ النظم هو توخي علم النحو ورعاية ارتباط اللفظ بمعناه، فعند النظر في النظم تجده ينظِّم علاقة اللفظ للمعنى الموضوع له، ولو تغير اللفظ تغير المعنى.

فأمَّا عن علاقة علم المناسبات بعلم السياق:

فهي أنَّ معرفة مقصود السورة لا يتمُّ إلا بمعرفة جميع جملها، وتدبُّر سياقها من بدايته إلى منتهاه، فيتوقف معرفة المناسبات على معرفة السياق، والسياق يكون خادمًا لعلم المناسبات في إبراز علل الترتيب التي يراها المفسّر،

(١) **ينظر** : جامع البيان لطبري (٦ / ٥١٦).

(٢) **ينظر** : إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٤ / ٣٧٣) .

(٣) **ينظر**: روح المعاني للألوسي (٣٧٤/١١).

وأسباب تقديم بعضها على بعض؛ فإنَّ السياق هو الذي يُشَخِّصُ المعاني ويُشَكِّلُها ويُجَدِّدُ بدايتها ونهايتها، ولذلك فهو خادم لعلم المناسبات، ولا يتم استجلاء المناسبات إلا بعد معرفة سياق المقاطع القرآنية، وحينئذٍ يتحدّد الموضوع، وعليه يكون إبراز المناسبة أمرًا في غاية الوضوح والبيان، فمن هذه الجهة يكون السياق خادمًا لعلم المناسبات، ومن جهة أخرى يكون علم المناسبات خادمًا للسياق؛ وذلك من خلال الكشف عن أوجه المناسبة بما يكون عونًا للمفسّر في إيضاح كلامه، وهو كالترجمان للسياق، فكلٌّ من العلمين خادمٌ للآخر"[١].

فعلم المناسبات القرآنية هو الترجمان الحقيقي للسياق القرآني ، وارتباطه به ارتباط الرأس بالجسد ، فلا يكاد ينفكُّ عنه بحال ، إذ إن علم المناسبات يبحث في بيان وجه ارتباط الآيات بعضها ببعضها الآخر في سياقها ، والسياق هو الضامُّ لتلك الآيات بما تحمله من معانٍ وحقائق ، فبيان وجه مناسبة الآيات :

" هو وجه اتساقها وانتظامها في سياق ما، أي: إن السياق هو الكاشف عن وجه المناسبة، ولا يستطيع الباحث أن يتوصل إليها إلا بالسياق، فهو الدالُّ على معانيها ومبانيها، وحينئذٍ تكون وظيفة علم المناسبات: الإجابة عن الأسئلة الواردة على تلك الآيات التي لا يظهر وجه مناسبتها لأول وهلة، فوظيفة السياق: الكشف عن تتابع وانتظام المعاني، ووظيفة علم المناسبات: الكشف عن وجه ورود هذا المعنى وارتصافه في هذا المكان دون غيره، وبيان اللحمة والائتلاف والترابط بين عناصر السياق الواحد، فهي علاقة تكاملية"[٢].

(١) **ينظر**: نظرية السياق القرآني د/ المثنى عبد الفتاح(صـ٨٨).

(٢) **ينظر**: المصدر السابق (صـ١٩).

هذه هي العلاقة بين علم المناسبات والسياق، يتَّضح من خلالها أن كلًّا منهما يكمِّل الآخر ويخدم بيان وحدة القرآن الكريم، والذي ما فتئ الباطنيون قديمًا، والحداثيون حديثًا في محاولة تمزيق وحدته، وأخذه قطعًا متناثرةً.

هذا ما يظهر من وجه العلاقة بين هذين العلمين، ووجه الارتباط بينهما، وقد يظهر لباحثٍ آخر وجهًا من الربط أدقُّ مسلكًا، وأقومُ سبيلًا.

أمَّا علاقة علم النَّظم بعلم المناسبات:

إنَّ علم المناسبات يحيط بالنَّصِّ كله على تباعد جمله واختلاف أغراضه، لأنَّه تتبُّعٌ للمعاني وجهات انتساب بعضها إلى بعض، وأحوالها في بعض؛ فتتقارب وتتعانق على تباعدها.

بينما النَّظم ترتيبٌ يعتبر فيه خصوصيَّة محدَّدة وهي التوخِّي لعلاقات النحو، وهو صفةٌ محدَّدةٌ تحفظ التماسك وتحكم النسج بين الجملة والجملتين أو ما تقارب دون ما اختلف أو تباعد، غير ما يبحث وراء هذه الصناعة النحويّة ويفسّرها ويكشف لنا ألوان المعاني التي وراءها"[(١)].

وإذا كان فساد النظم ترك العمل بقوانين النحو، وجب أن يكون العمل بقوانينه معتبرًا في صحة النظم، وذلك هو المطوب.

ولما كان النظم خصوصية محدودة كما قال عبد القاهر الجرجاني، فقد استدرك الرازي عليه؛ بأن قال: إنَّ النَّظم لا يحصل في الكلمة الواحدة، بل في ضمِّ البعض إلى البعض، وذلك النظم يعتبر فيه أحوال المفردات، وأحوال انضمام بعضها إلى بعض.

وأحوال المفردات فيما يخص علم النحو وقوانينه، وأحوال انضمام بعضها إلى بعض يكون فيما يتعلق بضم كلمة إلى غيرها"[(٢)].

---

(١) **ينظر**: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري للدكتور/ محمد محمد أبو موسى (١٨٩/١).

(٢) **ينظر**: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي(١٦٦/١).

فالرازي يشير إلى قِصَر علم النحو عن القيام بمهمَّة النظم، بل أشار إلى اعتباراتٍ عقليةٍ تنتظم بها العبارة ويحسن بناؤها، ولا مجرى فيها لعلم النحو.

وبذلك يكون قد جعل نظرية النظم قد لفَّت في ثناياها علم التناسب، وطوته في أحشائها حتى ظُنَّ أنه منها، فتداخل مع أصولها، حتى اختلط مع الضرب الذي يتحد في الوضع ويدق في الصنع.

أي أن معاني النحو تتبعها ورعايتها في هذا النوع من النظم تغمض وتدق وتتداخل مع تصاريف في الكلام يصعب أن يناط حكم انتظام الكلام وتناسقه بها دون غيرها، وقد ذكر الرازي ثلاثةً وعشرين وجهًا من أوجه النظم الذي ليس مناطه علم النحو فقط، من مقابلة ومطابقة ومراعاة النظير إلى آخر الوجوه التي ذكرها"[١].

وقد عدَّ العلماء علم التناسب قسيم النظم ومكمِّلًا له، كما قرَّر ذلك البَقاعي:

بهذا العلم يرسُخ الإيمان في القلب، ويتمكن من اللُّب، وذلك أنه يكشف للإعجاز طريقين؛ **أحدهما:** نظم كل جملة على حيالها، بحسب التركيب.

والثاني: نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب.

ثمَّ إذا عَبَر الفطن من ذلك إلى تأملٍ ربط كلَّ جملةٍ بما تلته وما تلاها؛ خفي عليه وجه ذلك، ورأى أنَّ الجمل متباعدةُ الأغراض متنائيةُ المقاصد"[٢].

والسورة تجد فيها تنوُّعًا وتنقُّلًا في الأغراض والمعاني، وأحيانًا يكون التنوع في الزمن أيضًا، فتجد الآية تجاور الآية في النظم وتمازجها في الدلالة، على اختلاف أسباب النزول، لأنَّ اتِّحاد الزمن إنما يشترط في سبب النزول، ولا يشترط في المناسبة، لأنَّ المقصود منها وضع الآية موضع يناسبها"[٣].

وأما التناسب فليس له حدٌّ يحصره ويحيط بأنواعه، وإنما في ملاحظة

(١) **ينظر**: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي (١/٦٨١-١٨٠).

(٢) **ينظر**: نظم الدرر للبَقاعي (١/٧).

(٣) **ينظر**: الإبهاج في شرح المنهاج للسبكي (٢/١٩٠).

لمقتضيات ترتب الكلام، علل تنزيل كل كلمة أو جملة أو مقطع مكانه ومقتضيات أن قدم هذا أو أخر غيره، ومقتضيات النحو وإن كان مطلبًا أساسيًا لتصور المعاني إلا أن هناك مواقع اعتباره والأخذ به يختزل بعض تفريعات المعنى وجهاته ويضيق الدلالة على نحو ما ذكره الإمام الرازي –رحمه الله– في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ هود: ٨٠، فإن قيل: ما الوجه هاهنا في عطف الفعل على الاسم؟

قلنا: قال صاحب "الكشاف" : قرئ أو آوي بالنصب بإضمار أن، كأنه قيل: لو أن لي بكم قوة أو آويًا.

واعلم أن قوله: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد لا بد من حمل كل واحد من هذين الكلامين على فائدة مستقلة، وفيه وجوه: **الأول:** المراد بقوله: لو أن لي بكم قوة كونه بنفسه قادرًا على الدفع وكونه متمكنًا إما بنفسه وإما بمعاونة غيره على قهرهم وتأديبهم، والمراد بقوله: أو آوي إلى ركنٍ شديدٍ هو أن لا يكون له قدرة على الدفع لكنه يقدر على التحصن بحصن ليأمن من شرهم بواسطته.

الثاني: أنه لما شاهد سفاهة القوم وإقدامهم على سوء الأدب تمنى حصول قوة قوية على الدفع، ثم استدرك على نفسه وقال: بلى الأولى أن آوي إلى ركن شديد وهو الاعتصام بعناية الله تعالى، وعلى هذا التقدير فقوله: أو آوي إلى ركن شديد كلام منفصل عما قبله ولا تعلق له به، وبهذا الطريق لا يلزم عطف الفعل على الاسم، ولذلك قال النبي عليه السلام: "رحم الله أخي لوطًا كان يأوي إلى ركن شديد""[1].

وهذا هو ما يعبر عنه شيخ الإسلام أبو السعود في تفسيره بـ" سبك الكلام" فقال عند قوله تعالى:﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ البقرة: ٢٨٥

(١) **ينظر**: مفاتيح الغيب للرازي (١٨/٣٨٠).

فقال:"وتوحيدُ الضمير في آمن مع رجوعه إلى كل المؤمنين لما أن المرادَ بيانُ إيمانِ كل فردٍ منهم من غير اعتبار الاجتماعِ كما اعتُبر ذلك في قوله تعالى: "وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخرين" وتغييرُ سبْكِ النظم الكريمِ عما قبلَه لتأكيد الإشعارِ بما بين إيمانه عليه السلام المبني على المشاهدة والعِيان وبين إيمانِهم الناشئ عن الحجة والبرهانِ من التفاوت البيِّن والاختلاف الجليِّ كأنهما مختلفان من كل وجهٍ حتى في هيئة التركيب الدالِّ عليهما وما فيه من تكرير الإسناد لما في الحُكم بإيمان كلِّ واحدٍ منهم على الوجه الآتي من نوعِ خفاءٍ مُحوِجٍ إلى التقوية والتأكيد أي كلٌّ واحد منهم آمن بالله"(١).

فسبك الكلام وتغيير نظامه إنما هو لأجل رعاية المعنى المراد من الآية، وهو على أكمل نظام وأتم بيان.

ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ الأنعام: ٨٩

فقال أبو السعود: "وأما تقديم صلة "وكلنا" – أي "بها" –على مفعوله الصريح– قومًا– فلِما ذكر من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ولأن فيه نوعَ طولٍ ربما يؤدِّي تقديمُه إلى الإخلال بتجاوب النظم الكريم أو إلى الفصلِ بين الصفةِ والموصوف وجوابُ الشرط محذوفٌ يدلُّ عليه المذكور أي فإن يكفُرْ بها هؤلاءِ فلا اعتدادَ به أصلاً فقد وفّقنا للإيمان بها قومًا فِخامًا ليسوا بكافرين بها قطعاً بل مستمرون على الإيمان بها والعملِ بما فيها ففي إيمانهم بها مندوحةٌ عن إيمان هؤلاء"(٢).

فرعاية التقديم والتأخير وترتيب لألفاظ حسب ما تقتضيه المعاني هو سبكٌ للكلام وانتظام معانيه وارتصاف مبانيه.

(١) **ينظر**: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢٧٤/١).

(٢) **ينظر**: المصدر السابق (١٦٠/٣).

ومن هذا يُفهم أن نظرية النظم لفت في ثناياها باب التناسب وطوته في أحشائها فتدخل مع أصولها، حتى ظن أنه منها فاختلط مع الضرب الذي يتحد مع الوضع ويدق في الصنع الذي ذكره عبد القاهر في قوله: واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك، في توخي المعاني التي عرفت: أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدًا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك"[(١)].

وقد فرَّق بينهما "**النظام الفراهي**" بقوله، فقال: إنَّ التناسب إنَّما هو جزءٌ من النظام، فإنَّ التناسب بين الآيات بعضها مع بعض لا يكشف كون الكلام شيئًا واحدًا مستقلًّا بنفسه، وطالب المناسبة ربَّما يقنع بمناسبةٍ مّا، فربَّما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام فيصير شيئًا واحدًا، وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتِّصالهما، فإنَّ الآية التالية ربَّما تكون متَّصلة بالآية التي قبلها على بعدٍ منها، ولولا ذلك لما عجز الأذكياء عن إدراك التناسب، فأنكروا به، فإنَّ عدم الاتصال بين آياتٍ متجاورة يوجد كثيرًا، ومنها ما نرى فيه اقتضابًا بيِّنًا، وذلك إذا كانت الآية، أو جملةٍ من الآيات متَّصلةٌ بالتي على بعدٍ منها.

ثمَّ قال: وبالجملة فمرادنا بالنظام أن تكون السورة كاملًا واحدًا، ثمَّ تكون ذات مناسبةٍ بالسورة اللاحقة والسابقة، والنظام شيءٌ زائدٌ على المناسبة وترتيب الأجزاء"[(٢)].

(١) **ينظر**: دلائل الإعجاز للجرجاني (٩٣/١).

(٢) **ينظر**: دلائل النظام للفراهي الهندي (٧٤/١، ٧٥).

قلتُ: وهذا الكلام في آخره ردٌّ على أوَّله؛ إذْ كيف يكون التناسب جزءًا من النَّظم، ثمَّ يكون النَّظم شيئًا زائدًا على المناسبة وترتيب الأجزاء؟ وعلى كلٍّ: فإنَّ التناسب أعمُّ من النَّظم؛ إذ النظم يكون في انتظام الألفاظ مع معانيها في قالبٍ واحدٍ، والتناسب أوسع وأشمل؛ وذلك حين يقع التناسب بين أول السورة مع آخرها، وبين أجزاء السورة السابقة مع اللاحقة، أو معهما إجمالًا، أو بين الآيات، أو بين موضوعات السورة، إلى آخر أنواع المناسبات التي وردت، وبهذا يكون التناسب أوسع شمولًا من النَّظم، والنَّظم يؤدِّي إلى استخراج المناسبة؛ فهو بذلك خادمٌ لعلم المناسبات.

أمَّا السياق فإنه يختلف بالحذف والذكر، والتعريف والتنكير، فإذا أطلق النظم قصد به أوجه الاختلاف هذه، وما ينشأ عنها من نكتٍ بيانيّة.

أمَّا عن النظم بهذا الاعتبار، إذ إنه يبحث في الدلالات المعنوية الآتية في مساقٍ واحدٍ ، ومدى انسجامها فيما بينها، بحيث تشكِّل قطعةً موضوعية من الحقائق العقدية، أو التشريعية، أو الآفاقية والكونية، بما يحقِّق للإنسان درب الهداية والفلاح، ومدى ترابط المعاني وتتابعها في طريقٍ واحدٍ؛ لأجل الوصول على غايةٍ محدَّدةٍ"(١).

فالسياق يبحث في ترابط المعاني بالمعاني السابقة واللَّاحقة، والنظم يبحث في ترابط المعاني بألفاظها، وبهذا يظهر الفرق بين المصطلحين.

ويمكن أن نقول إنَّ السياق هو: علاقة المعنى بالمعنى، والنظم هو علاقة اللفظ بالمعنى.

فالسياق بهذا المفهوم خادمٌ للنظم، إذ إنَّ الأخير قد اختص بإيضاح الوجوه البيانية ومدى تناسب المعاني مع ألفاظها، إذ لا يتَّضح المعنى ويَبينُ وجهه حتى

(١) **ينظر**: نظرية السياق القرآني (صـ١٤– ١٥) بتصرف.

يتم استجلاء السياق من حيث دلالته المعنوية بسباقه ولحاقه، ومن ثَمَّ يتضح الوجه المبحوث عنه من ناحية النظم؛ لأنَّ ذلك أدعى لتلمِّس الحقيقة والكشف عن وجه حسنها"[(١)].

ولا يخفى على ذي عقلٍ أنَّ هذه العلوم الثلاثة لم تكن بهذه المكانة في استجلاء براعة وجزالة اللفظ الكريم في القرآن الكريم لولا مراعاة المبدأ الرئيس ألا وهو الترتيب القرآني من حيث الآيات والسور، فرعاية الترتيب هي التي جعلت هذه العلوم الثلاثة مظهرًا من مظاهر إعجاز القرآن الكريم، لأن الأصل رعاية ترتيب القرآن الكريم، ثمَّ بعد ذلك يتمُّ استجلاء هذه العلوم واستظهارها لبيان عظمة التنزيل وجلال الترتيل.

ثمَّ إنَّ أمر الترتيب يجعل نظم الكلام منتظمًا في سلكٍ متين، ثم يأتي السياق فيجلي المعاني السابقة بالمعاني اللاحقة ويربطها برباطٍ وثيقٍ، ثمَّ يظهر ثالثها وهو التناسب فيبرز الرابط العامة للآيات ثم للسور ثم بيان العلاقة بين فواتح السور بخواتيمها، ثم علاقة الموضوعات وما بينها من تناسب؛ ولذلك كان التناسب ضربًا من ضروب فصاحة الخطاب العربي تجاهله يل بمقاصد المتكلمين ويحول دون الوصول إلى أغراضهم في الإبانة صرح بذلك الحرالي"[(٢)]: "ونمط من فصاحة الخطاب العربي، لأن العرب يردون الثالث إلى الأول لا إلى الثاني ليتعلق بالأول في المعنى وينتظم بالثاني في اللفظ فيكون محرز المحل المفهوم راجعًا إلى الأول بالمعنى""[(٣)].

---

(١) **ينظر**: نظرية السياق القرآني (صـ١٤– ١٥) بتصرف..

(٢) **هو**: علي بن أحمد بن الحسن الحرالّي التجيبي، أبو الحسن: مفسر، من علماء المغرب. أطال الغبريني في الثناء عليه وإيراد أخباره، وقال: ما من علم إلاَّ له فيه تصنيف. أصله من "حرالة"، ومن كتبه: "مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل" في التفسير، و"تفهيم معاني الحروف"، و"الوافي"، وتوفي سنة: ٦٣٨ هـ. **ينظر**: ميزان الاعتدال (٢١٨/٢)، ولسان الميزان (٢٠٤/٤).

(٣) **ينظر**: تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير (٣٥٨/١).

فهي علوم تكاملية متشابكة متناغمة، وذلك لأن دراسة علم المعاني في الإسناد، وهذا بما يتعلق بالنظم والتناسب، لكن هناك اعتبار آخر وهو ملاحظة الترتيب والربط الكلي فهي خصوصية زائدة على الإسناد، لا انتساب المعاني بعضها إلى بعض يكون وفق موقع تتصل بالإسناد الداخلي للدلالات بأن تقع منها على جهات تزيد بها الفائدة كالمقابلة والتضاد أو المشابهة، ولذلك يقول ابن حازم"[١]: إن المعاني منها ما يطلب بسحب الإسناد خاصة، ومنها ما يطلب بحسب الإسناد وبحسب انتسب بعض المعاني إلى بعض في أنفسها، بكونها أمثالًا أو أشباهًا أو أضدادًا أو متقاربات من الأمثال والأضداد"[٢] ".

ولا يفهم مما سبق من الكلام على الترتيب أنه الترتيب على نسقٍ مطَّردٍ يتعلق فيه الأول بالثاني، وهو مقصودٌ بالطبع، ولكن هناك نوع آخر من الترتيب وهو تنظيم داخلي تتشعب الجمل فيه لتستقرَّ في مواقعها بحب مقاصد المتكلم ومقتضيات الأحوال فتصبح "كالجداول المتشعبة" أي أنَّ كلَّ جملةٍ تلفُّ في ثناياها قنواتٍ خفيَّةٍ لمعانٍ وأغراضٍ مختلفةٍ، فتشقُّ له مجرى تتشعب فيه عن مجرى الجملة الأم ثم تؤسِّس لمعنى آخر، فكأنَّ علم التناسب كشف منظم لحركة المعاني دخل النسق وكيفية تولدها ثم تحولاتها وانتقالاتها، وملاحظة الوشائج المنظمة لهذه الانتقالات ثم المعاني المستقلة وبيان طريقة ائتلافها مع المقاصد الكلية للسورة"[٣].

واستجلاء براعة النظم وحسن السياق وعظمة التناسب محلُّ اجتهادٍ بين المفسرين، ولكن الترتيب هو الذي لم يقع فيه اجتهادٌ؛ بل الأمر فيه على التوقيف

(١) **هو**: حازم بن محمد بن حسن، ابن حازم القرطاجني، أبو الحسن: أديب من العلماء له شعر. من أهل قرطاجنة، ومن كتبه: مناهج البلغاء وسراج الأدباء، وديوان شعر، وتوفي بتونس:٦٨٤هـ. **ينظر**: نفح الطيب (٦٢٧/١)، وبغية الوعاة (١/ ٢١٤).

(٢) **ينظر**: منهاج البلغاء أبو الحسن القرطاجني (صـ٤٤).

(٣) **ينظر**: التناسب في تفسير الإمام الرازي دراسة في أسرار الاقتران صـ(٧٢).

ثم تتوجه أنظار المفسرين لاستخراج كنوزه ودرره.

وبهذا العرض يتبيَّن أنَّ النَّظم والسياق والتناسب؛ علوم تتكامل وتتناغم وتنسجم في إبراز عظمة الترتيب وجلالة التنزيل، فعلم النظم: هو توخي معاني النحو وعلاقة المعنى باللفظ الموضوع له، والسياق هو الذي يربط السابق باللاحق، ثم التناسب الذي يكسو كلَّ هذا ويحيط بكيانه، ويربط بين أجزائه مهما تباعدت حتى تصل إلى علاقة الأطراف والفواتح بالخواتيم.

المبحث الخامس: استخدام المفسرين النظريات الثلاث وتطبيقها في القرآن الكريم

من ينظر إلى صنيع المفسرين يعلم جيدًا أن منهم من لم يهمل التفريق بينها، وبعض المفسرين اعتبر أنّ مؤداها واحدٌ، فأطلقوا النظم حيث تكون المناسبة، والسياق حيث يكون النظم، والمناسبة حيث النظم، وهكذا حيث لا مشاحة في الألفاظ، وكأنَّ الأمر مرجعه إلى المدارس، حيث مدرسة عبد القاهر الجرجاني، فرقت بين هذه العلوم، ومدرسة الرازي صاحب التفسير أدخلت التناسب في النظم، من حث تعلق المعاني والألفاظ.

ولذلك الإمام الرازي عند ذكر المناسبة فإنه يعبر عنها "بالنظم"، فعند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ البقرة: ١١٤، يقول: وعندي فيه وجه خامس وهو أقرب إلى رعاية النظم: وهو أن يقال: إنه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة عند توجههم إلى الكعبة، ولعلهم سعوا أيضًا في تخريب الكعبة بأن حملوا بعض الكفار على تخريبها، وسعوا أيضا في تخريب مسجد الرسول ﷺ لئلا يصلوا فيه متوجهين إلى القبلة، فعابهم الله بذلك وبين سوء طريقتهم فيه"(١).

فجعل منع المساجد من ذكر الله والسعي في خرابها مرتبطًا بتحويل القبلة، وهو أمرٌ لا يخفى أنه من البعد عن هذا المكان في موضع الآيات، فجعله من النظم، وهو من المناسبة، كما بينا ذلك في مهمة كل علمٍ من العلوم.

ومما عبر عنه الرازي بالنظم وهو من باب المناسبة، حيث ذكر في خواتيم سورة البقرة علاقة الخاتمة بمضمون السورة، فقال عند قوله

(١) **ينظر**: مفاتيح الغيب للرازي (١١/٤).

تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ البقرة: ٢٨٤

وفي كيفية النظم وجوه الأول: قال أبو بكر الأصم "عبدالرحمن بن كيسان": إنه تعالى لما جمع في هذه السورة أشياء كثيرة من علم الأصول، وهو دليل التوحيد والنبوة، وأشياء كثيرة من علم الأصول ببيان الشرائع والتكاليف، وهي في الصلاة، والزكاة، والقصاص، والصوم، والحج، والجهاد، والحيض، والطلاق، والعدة، والصداق، والخلع، والإيلاء، والرضاع، والبيع، والربا، وكيفية المداينة ختم الله تعالى هذه السورة بهذه الآية على سبيل التهديد"(١).

ولكنَّ أبا حيان قد سمَّاها مناسبةً ولم يسمها نظمًا؛ **فقال:** "ومناسبتها ظاهرة، لأنه لما ذكر أن من كتم الشهادة فإن قلبه آثم، ذكر ما انطوى عليه الضمير، فكتمه أو أبداه، فإن الله يحاسبه به، ففيه وعيد وتهديد لمن كتم الشهادة، ولما علق الإثم بالقلب ذكر هنا الأنفس، فقال: وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه وناسب ذكر هذه الآية خاتمة لهذه السورة لأنه تعالى ضمنها أكثر علم الأصول والفروع من: دلائل التوحيد، والنبوة، والمعاد، والصلاة، والزكاة، والقصاص، والصوم، والحج، والجهاد، والحيض، والطلاق، والعدة، والخلع، والإيلاء، والرضاعة، والربا، والبيع، وكيفية المداينة. فناسب تكليفه إيانا بهذه الشرائع أن يذكر أنه تعالى مالك لما في السموات وما في الأرض، فهو يلزم من شاء من مملوكاته بما شاء من تعبداته وتكليفاته.

ولما كانت هذه التكاليف محل اعتقادها إنما هو الأنفس، وما تنطوي عليه من النيات، وثواب ملتزمها وعقاب تاركها إنما يظهر في الدار الآخرة، نبه على صفة العلم التي بها تقع المحاسبة في الدار الآخرة بقوله: وإن تبدوا ما في أنفسكم

(١) **ينظر**: المصدر السابق (١٠٢/٧).

أو تخفوه يحاسبكم به الله فصفة الملك تدل على القدرة الباهرة، وذكر المحاسبة يدل على العلم المحيط بالجليل والحقير، فحصل بذكر هذين الوصفين غاية الوعد للمطيعين، وغاية الوعيد للعاصين"(١).

ومما كان من باب النظم على طريقة عبد القاهر الجرجاني ما جاء ذكره عند قول الله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠﴾ البقرة: ٢٣٠

فقال الرازي: واعلم أن وقوع آية الخلع فيما بين هاتين الآيتين كالشيء الأجنبي، ونظم الآية: الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره.

فإن قيل: فإذا كان النظم الصحيح هو هذا فما السبب في إيقاع آية الخلع فيما بين هاتين الآيتين؟.

قلنا: السبب أن الرجعة والخلع لا يصحان إلا قبل الطلقة الثالثة، أما بعدها فلا يبقى شيء من ذلك: فلهذا السبب ذكر الله حكم الرجعة، ثم أتبعه بحكم الخلع، ثم ذكر بعد الكل حكم الطلقة الثالثة لأنها كالخاتمة لجميع الأحكام المعتبرة في هذا الباب"(٢).

فترتيب الآيات وتقديم آية وتأخير أخرى من باب النظم ومبناه.

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ٦٤﴾ القصص: ٦٤

"وأن يكون المراد من الرؤية رؤية القلب أي والكفار علموا حقيقة هذا

(١) **ينظر**: تفسير البحر المحيط لأبي حيان (٧٤٩/٢، ٧٥٠).

(٢) **ينظر**: مفاتيح الغيب للرازي (٤٤٨/٦).

العذاب في الدنيا لو كانوا يهتدون وهذه الوجوه عندي خير من الوجوه المبنية على أنَّ جواب لو محذوف فإنَّ ذلك يقتضي تفكيك النظم من الآية""[1].

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ العاديات:٨ الضمير فيه عائدٌ إلى الإنسان، فيجب أن يكون الضمير في الآية التي قبله عائدًا إلى الإنسان ليكون النظم أحسن"[2].

فكان عود الضمير إلى الإنسان أمرٌ حسنٌ في النظم، ويزيده حسنًا.

فمن ينظر إلى صنيع الرازي يجد أنه طبَّق نظريته في النظم وجعلها أكثر شمولًا من عبد القاهر الجرجاني، فشملت توخي معاني الإعراب وعلاقة اللفظ للمعنى واتسعت إلى تعانق الكلمات والجمل والآيات؛ بل وربما المقاطع المتباعدة، فعنده النظم قد حوى في داخله التناسب.

وعند النظر فيمن تأثر بالرازي في هذا الباب كصاحب تفسير المنار حيث نقل عن الرازي العلاقة بين الآيات بـ"النظم"، في حين أنه سماها "مناسبةً" فقال عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٩٤﴾ المائدة: ٩٤

وقال الرازي في مناسبة هذا لما قبله ما نصه: ووجه النظم أنه تعالى كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ المائدة:٨٧، ثم استثنى الخمر والميسر من تلك فكذلك استثنى هذا النوع من الصيد عن المحللات وبين دخولهم في المحرمات انتهى وما قلناه خير"[3]، "[4].

وما ذكره الطاهر ابن عاشور ليس بعيدًا عن هذا الأمر، فقد قال عند قول

(١) **ينظر**: مفاتيح الغيب للرازي (١٠/٢٥).

(٢) **ينظر**: المصدر السابق (٢٦٢/٣٢).

(٣) **ينظر**: مفاتيح الغيب للرازي (٤٢٨/١٢).

(٤) **ينظر**: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٨٤/٧).

الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ **البقرة: ٢١٧**

"واعلم أنَّ مقتضى ظاهر ترتيب نظم الكلام أن يقال: وصد عن سبيل الله وكفر به وصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، فخولف مقتضى هذا النظم إلى الصورة التي جاءت الآية عليها، بأن قدم قوله "وكفر به" فجعل معطوفا على "صد" قبل أن يستوفي صد ما تعلق به وهو "والمسجد الحرام" فإنه معطوف على "سبيل الله" المتعلق بـ "صد" إذ المعطوف على المتعلق متعلق فهو أولى بالتقديم من المعطوف على الاسم المتعلق به، لأن المعطوف على المتعلق به أجنبي عن المعطوف عليه، وأما المعطوف على المتعلق فهو من صلة المعطوف عليه، والداعي إلى هذا الترتيب هو أن يكون نظم الكلام على أسلوب أدق من مقتضى الظاهر وهو الاهتمام بتقديم ما هو أفظع من جرائمهم، فإن الكفر بالله أفظع من الصد عن المسجد الحرام، فكان ترتيب النظم على تقديم الأهم فالأهم، فإن الصد عن سبيل الإسلام يجمع مظالم كثيرة لأنه اعتداء على الناس في ما يختارونه لأنفسهم، وجحد لرسالة رسول الله، والباعث عليه انتصارهم لأصنامهم ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ ص: ٥، فليس الكفر بالله إلا ركنا من أركان الصد عن الإسلام فلذلك قدم الصد عن سبيل الله ثم ثنى بالكفر بالله ليفاد بدلالة المطابقة بعد أن دل عليه الصد عن سبيل الله بدلالة التضمن، ثم عدَّ عليهم الصدَّ عن المسجد الحرام ثم إخراج أهله منه. ولا يصح أن يكون «والمسجد الحرام» عطفًا على الضمير في قوله "به" لأنه لا معنى للكفر بالمسجد الحرام؛ فإنَّ الكفر يتعدى إلى ما يعبد وما هو دين وما يتضمن دينًا"(١).

(١) **ينظر**: التحرير والتنوير لابن عاشور(٢/٢٣٠،٢٢٩).

وانظر إلى ما قاله أبو السعود-رحمه الله- عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ الأنعام: ١٥٤

فقال:﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ كلامٌ مسوقٌ من جهتِه تعالى تقريرًا للوصية وتحقيقًا لها وتمهيدًا لما يعقُبه منْ ذكر إنزال القرآنِ المجيد كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى التكلم معطوفٌ على مقدرٍ يقتضيه المقامُ ويستدعيهِ النظامُ؛ كأنَّه قيل بعد قوله تعالى" ذلكم وصَّاكم بِهِ" بطريق الاستئنافِ تصديقًا له وتقريرًا لمضمونه فعلنا ذلك ثم آتينا الخ كما أن قوله تعالى وَنَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ معطوفٌ على ما يدلُّ عليهِ معنى أَوَ لَمْ يَهْدِ الخ كأنه قيل يغفُلون عن الهداية وتطيع...الخ، وأما عطفُه على ذلكم وصَّاكم به ونظمُه معه في سلك الكلامِ الملقّن كما أجمع عليه الجمهورُ فمما لا يليق بجزال النظمِ الكريم فتدبر"[1].

وعند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ يوسف: ٤٢، يذكر أنَّ إيثار الألفاظ دون غيرها ما هو إلا رعايةً للنظم، **فقال:** أُوثر على صيغة المضارعِ مبالغةٌ في الدلالة على تحقق النجاةِ حسبما يفيده قوله تعالى:﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ يوسف: ٤١ ، وهو السرُّ في إيثارَ مَا عليهِ النظمُ الكريمُ على أن يقال للذي ظنه ناجيًا"[2].

وعند قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ الأعراف: ١٩٣

(١) **ينظر**: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣/٢٠٠، ٢٠١).

(٢) **ينظر**: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٤/٢٨٠).

فقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ جملةٌ اسميةٌ في معنى الفعليةِ معطوفةٌ على الفعلية لأنها في قوة "أمْ صَمَتّم" عُدل عنها للمبالغة في عدم إفادةِ الدعاء ببيان مساواتِه للسكوت الدائمِ المستمر، وما قيل من أنَّ الخطابَ للمسلمين، والمعنى: وإن تدعوا المشركين إلى الهدى أي الإسلامِ لا يتبعوكم...الخ مما لا يساعده سياق النظم الكريم وسياقُه أصلًا على أنه لو كان كذلك لقيل عليهم مكان عليكم كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ البقرة: ٦، فإن استواءَ الدعاءِ وعدمَه إنما هو بالنسبة إلى المشركين لا بالنسبة إلى الداعين فإنهم فائزون بفضل الدعوة"[١].

فتوجيه الخطاب للمشركين؛ لا المسلمين هو ما ينتظم مع سياق النظم الكريم، وكذلك سياقه؛ إذ الحديث عن إشراك المشركين وما يدعونه من دون الله.

وإيثار التعبير بلفظة دون أخرى لمعنى يقتضيه المقام هو النظم بعينه، ولذلك ما جاء في إيثار الألفاظ دون غيرها كل ذلك اعتبارًا لجلال النظم دون شيء آخر، ولذلك قول أبو السعود: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ الأنبياء: ٤٥

وتقييدُ نفي السماعِ بقوله تعالى﴿ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ مع أن الصمَّ لا يسمعون الكلام إنذارًا كان أو تبشيرًا لبيان كمال شدةِ الصّمَمِ كما أن إيثارَ الدعاء الذي هو عبارة عن الصوت والنداءِ على الكلام؛ لذلك فإن الإنذارَ عادة يكون بأصواتٍ عاليةٍ مكرَّرةٍ مقارنة لهيئاتٍ دالَّةٍ عليه فإذا لم يسمعوها يكون صَممُهم في غايةٍ لا غايةَ وراءَهَا"[٢]

(١) **ينظر**: المصدر السابق (٣/٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) **ينظر**: المصدر السابق (٦/٧٠).

والأمثلة كثيرةٌ غزيرةٌ في كتب التفاسير التي اهتمت باستخراج الدقائق والمعاني التي بُنيت على السياق وترجيحه، وعلى النظم تقديمه، وعلى التناسب وإعجازه، وكلُّ ذلك دثارٌ تندرج تحت عباءة الترتيب القرآني- آياتٌ وسورٌ-، وعلى الدارسين المقتحمين هذا الباب أن يتنبهوا إلى أنَّ المفسرين قد افترقوا في ذلك، فمنهم من فرق بين هذه العلوم الثلاثة، واستعملها كلَّ واحدٍ في بابه، ومنهم من أدرج التناسب في النظم والسياق في التناسب اعتمادًا على أنَّ الألفاظ لا مشاحة فيها أو أنَّ هذه العلوم كلها تحافظ على الترتيب فلا حرج في تداخلها، ورائد هذا القول الإمام الرازي -رحمه الله-، ولكن إذا كان كلام المفسرين كالرازي مثلًا نجد أنه يطلق النظم دائمًا ولا يذكر التناسب في ما هو من باب التناسب أو السياق، فأي قيمة إذًا للسياق والتناسب إذا أُهملا؟!، بالرغم من أن مَن يطالع الرسائل التي كُتبت على تفسير الرازي-مفاتيح الغيب- جلُّها يقوم على دراسة التناسب؛ لذا ينبغي على الدارسين والباحثين أن يتنبهوا لمثل هذا الصنيع، فلا يغفلوا مقاصد المفسرين في إطلاقهم المصطلحات، بل ينبهوا أو يفرقوا بين هذه العلوم من حيث استخدام المفسرين لها.

الخاتمة

وتتضمن أهم النتائج والتوصيات

أولًا: النتائج: -

١- دراسة النظريات الثلاثة وتطبيقها في القرآن الكريم يُعدُّ إثراءً للمكتبة التفسيرية.

٢- اعتماد هذه النظريات أو العلوم الثلاثة على الترتيب القرآني –آياتٍ وسورٍ– أمرٌ حتميٌّ.

٣- اختلاف العلماء المؤسسين لنظرية النظم؛ كعبد القاهر الجرجاني وتلميذه من بعده الرازي حول استيعاب النظم للعلاقة بين الألفاظ، وبين الألفاظ ومعانيها، وبين المعاني المختلفة القريبة منها والبعيدة يُعدُّ تطوُرًا أوسع لفهم النظم القرآني؛ لكنه يؤثر على دور النظريات الأخرى– السياق والتناسب– في إظهار إعجاز القرآن الكريم.

ثانيًا: التوصيات: -

١- الاهتمام بتوظيف هذه العلوم في الدراسات القرآنية، للوقوف على إعجاز القرآن الكريم.

٢- على الباحثين والدارسين التفريق بين هذه العلوم في دراسة كتب التفسير حتى لا يفوت الاهتمام بعلمٍ دون علمٍ.

٣- انتباه الباحثين لاستعمال المفسرين لهذه الألفاظ هل هو على سبيل التحديد أم على سبيل التجوز في العبارة أم على سبيل التشابك والتداخل؟ حتى يكون القارئ على دراية بما يقرأه.

هذا، وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

أولًا :

القرآن الكريم

ثانيًا : التفسير وعلوم القرآن

١- **الإتقان في علوم القرآن** : لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت : ٩١١هـ) ، طبعة : دار الفكر ، سنة : ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م .

٢- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم " تفسير أبي السعود** " : لأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (ت: ٩٨٢هـ) ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان .

٣- **إعراب القرآن:** أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (ت: ٣٣٨هـ)، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ.

٤- **إعراب القرآن وبيانه:** محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (ت : ١٤٠٣هـ)،الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، (دار اليمامة – دمشق – بيروت) ، (دار ابن كثير – دمشق – بيروت)،الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ

٥- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** : لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) ، طبعة : دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ .

٦- **إيجاز البيان عن معاني القرآن:** محمود بن أبى الحسن بن الحسين النيسابوري أبو القاسم، نجم الدين (ت: نحو ٥٥٠هـ) تحقيق: الدكتور حنيف بن حسن القاسمي– دار الغرب الإسلامي – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٥ هـ.

٧- **البحر المحيط في التفسير** : لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) ، طبعة : دار الفكر- بيروت ، الطبعة: ١٤٢٠ هـ .

٨- **البرهان في علوم القرآن** : محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله ، طبعة : دار المعرفة – بيروت ، سنة : ١٣٩١ هـ .

٩- **التحرير والتنوير** "**تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**": محمد الطاهر ابن محمد ابن محمد الطاهر ابن عاشور التونسي(ت:١٣٩٣هـ)، طبعة: الدار التونسية للنشر- تونس، سنة: ١٩٨٤هـ.

١٠-**تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التفسير**: الحَرَالِّيُّ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَسَنٍ التُّجِيْبِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ (ت: ٦٣٨هـ)، تحقيق: محمادي بن عبد السلام الخياطي، نشر: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي – الرباط، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م

١١-**تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**: محمد رشيد ابن علي رضا ابن محمد شمس الدين ابن محمد بهاء الدين ابن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ)، طبعة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة: ١٩٩٠ م

١٢-**تفسير القرآن العظيم**: أبو محمد سهل ابن عبد الله ابن يونس ابن رفيع التُستري (ت:٢٨٣هـ)، جمعها: أبو بكر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود- منشورات محمد علي بيضون/ دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة: الأولى- ١٤٢٣هـ.

١٣-**تفسير القرآن العظيم**: أبو محمد عبد الرحمن ابن محمد ابن إدريس ابن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ) طبعة: مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة، سنة: ١٤١٩ هـ.

١٤-**تفسير القرآن العظيم:** لأبي الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) طبعة : دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م .

١٥-**التناسب في تفسير الإمام الرازي دراسة في أسرار الاقتران:** الباحث/ منال مبطي حامد المسعودي، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية -جامعة أم القرى- السعودية، عام:٢٠١٠م- ١٤٣١هـ.

١٦-**جامع البيان في تأويل القرآن:** محمد ابن جرير ابن يزيد ابن كثير ابن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، طبعة: مؤسسة الرسالة، الطبعة : الأولى، ١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠ م .

١٧-**الجامع لأحكام القرآن= تفسير القرطبي:** لأبي عبد الله محمد ابن أحمد ابن أبي بكر ابن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، طبعة: دار الكتب المصرية- القاهرة، الطبعة: الثانية ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

١٨-**حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي،** الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (ت: ١٠٦٩هـ).

١٩-**الدر المصون في علوم الكتاب المكنون:** أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ) تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

٢٠-**الدر المنثور في التفسير بالمأثور** : لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) ، طبعة : دار الفكر - بيروت

٢١-**دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن جرير الطبري:** د/ عبدالحكيم ابن عبدالله القاسم، دار التدمرية، سنة: ١٩٩٩م.

٢٢-**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** : لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ) ، طبعة : دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ .

٢٣-**زاد المسير في علم التفسير**: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٢٢هـ.

٢٤-**السياق الدلالي القرآني في التفسير" دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير القرآن العظيم لابن كثير**": رسالة ماجستير، للباحث/ عبدالرحمن عبدالله سرور، كلية اصول الدين- قسم علوم القرآن – جامعة أم القرى ٢٠١٥م.

٢٥-**قواعد الترجيح عند المفسرين "دراسة نظرية تطبيقية"** : حسين الحربي ، دار القاسم ، الطبعة الأولى ، سنة : ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م .

٢٦-**قواعد التفسير جمعًا ودراسةً**: خالد بن عثمان السبت، طبعة دار ابن عفان.

٢٧-**الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** : لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، دار النشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٢٨-**الكشف والبيان عن تفسير القرآن** : لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (ت: ٤٢٧هـ) ، طبعة: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ – ٢٠٠٢ م .

٢٩-**لباب التأويل في معاني التنزيل**: لعلاء الدين علي ابن محمد ابن إبراهيم بالخازن (ت:٧٤١هـ)، طبعة: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

٣٠-**مفاتيح الغيب**: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي (ت: ٦٠٦هـ)، طبعة: دار الكتب العلمية- بيروت-، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م .

٣١-**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: لبرهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ، طبعة: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الثانية : ٢٠٠٢ م . ١٤٢٤ هـ .

ثالثًا : الحديث وعلومه ، وأصول الفقه

١- **الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي**: علي بن عبد الكافي السبكي، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة: ١٤٠٤هـ.

٢- **إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول**: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ)، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق – كفر بطنا، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م.

٣- **البحر المحيط في أصول الفقه**: أبو عبد الله بدر الدين محمد ابن عبد الله ابن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، دار الكتبي، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

٤- **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري**: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥- **قواطع الأدلة في لأصول**: أبو المظفر، منصور ابن محمد ابن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت: ٤٨٩هـ)، تحقيق: محمد حسن محمد حسن اسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٩م.

٦- **المحصول**: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: ٦٠٦هـ)، دراسة وتحقيق:

الدكتور طه جابر فياض العلواني، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

٧- **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم" صحيح مسلم"** : مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٨- **منهاج الوصول إلى علم الأصول:** لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، حققه وقدم له د/ شعبان محمد إسماعيل، دار ابن حزم، الطبعة الأولى: ٢٠٠٨م.

٩- **الموافقات:** إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت:٧٩٠هـ) تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٠- **الورقات:** عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (ت: ٤٧٨هـ)، تحقيق: د. عبد اللطيف محمد العبد.

رابعًا: كتب التراجم والأعلام

١- **أعلام العراق للأثري "سيرة الإمام الكبير الألوسي"**: محمد بهجة الأثري، طبعة الدار العربية للموسوعات- بيروت، الأولى: ١٤٢٢ هـ.

٢- **البداية والنهاية**: لأبي الفداء إسماعيل ابن عمر ابن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، طبعة: دار هجر، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، سنة النشر: ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .

٣- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**: عبد الرحمن ابن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، طبعة: المكتبة العصرية - لبنان/ صيدا.

٤- **تاريخ بغداد**: أبو بكر أحمد ابن علي ابن ثابت ابن أحمد ابن مهدي الخطيب البغدادي (ت:٤٦٣هـ)، طبعة: دار الغرب الإسلامي- بيروت، الطبعة: الأولى،١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.

٥- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**: الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت : ٨٥٢ هـ)، طبعة: مجلس دائرة المعارف العثمانية، سنة: ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م .

٦- **سير أعلام النبلاء**: شمس الدين أبو عبد الله محمد قَايْماز الذهبي (ت : ٧٤٨هـ) طبعة : مؤسسة الرسالة ، الطبعة : الثالثة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

٧- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** : عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (ت: ١٠٨٩هـ)، طبعة: دار ابن كثير، دمشق- بيروت ، الطبعة: الأولى ، سنة : ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

٨- **طبقات الحفاظ = تذكرة الحفاظ** : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) ، طبعة : دار الكتب العلمية بيروت-لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م .

٩- **طبقات الشافعية** : تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت: ٧٧١هـ) ، طبعة : هجر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة: الثانية ، سنة : ١٤١٣هـ .

١٠-**طبقات المفسرين** : أحمد بن محمد الأدنه وي من علماء القرن الحادي عشر(ت: ق ١١هـ) طبعة: مكتبة العلوم والحكم – السعودية ،الطبعة: الأولى ، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م .

١١-**طبقات المفسرين** : عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، طبعة : مكتبة وهبة – القاهرة، الطبعة الأولى : ١٣٩٦ هـ .

١٢-**طبقات المفسرين** : محمد بن علي بن أحمد، شمس الدين الداوودي المالكي (ت: ٩٤٥هـ) ، طبعة : دار الكتب العلمية – بيروت .

١٣-**العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم** : لطاش كبرى زاده (ت: ٩٦٨هـ)، طبعة : دار الكتاب العربي – بيروت ، سنة : ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م .

١٤-**غاية النهاية في طبقات القراء**: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (ت: ٨٣٣هـ) طبعة: مكتبة ابن تيمية، الطبعة: الأولى، سنة: ١٣٥١هـ.

١٥-**اللباب في تهذيب الأنساب**: أبو الحسن علي ابن أبي الكرم محمد ابن محمد ابن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ)، دار صادر – بيروت.

١٦-**لسان الميزان**: أبو الفضل أحمد ابن علي ابن محمد ابن أحمد ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) طبعة: دار البشائر الإسلامية، الطبعة: الأولى، سنة : ٢٠٠٢م.

١٧-**معجم الأدباء= إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت ابن عبد الله الرومي الحموي (ت: ٦٢٦هـ)، طبعة: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م.

١٨-**منهاج البلغاء وسراج الأدباء:** حازم ابن محمد ابن حسن، ابن حازم القرطاجني، أبو الحسن (ت:٦٨٤هـ)، تحقيق: محمد الحسن ابن الخوجة، لبنان-بيروت- دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٨٦.

١٩-**ميزان الاعتدال في نقد الرجال:** شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن أحمد ابن عثمان ابن قَايْماز الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣م.

٢٠-**نفح الطيب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب** : شهاب الدين أحمد ابن محمد المقري التلمساني (ت: ١٠٤١هـ) ، طبعة : دار صادر- بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م .

٢١-**الوافي بالوفيات** : صلاح الدين خليل ابن أيبك ابن عبد الله الصفدي (ت: ٧٦٤هـ) ، طبعة : دار إحياء التراث – بيروت ، سنة :١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م

٢٢-**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** : أبو العباس شمس الدين أحمد ابن محمد ابن إبراهيم ابن أبي بكر ابن خلكان (ت: ٦٨١هـ) ، طبعة : دار صادر – بيروت.

خامسًا: اللغة والمعاجم والبحث العلمي

١- **الإيضاح في علوم البلاغة:** محمد ابن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (ت: ٧٣٩هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة.

٢- **الألفاظ المترادفة:** أبي الحسن علي ابن عيسى الرماني(ت:٣٨٤هـ)، ضبطه وصححه الشيخ / محمد محمود الشنقيطي، مطبع الموسوعات بمص، سنة ١٣٢١هـ.

٣- **أبجديات البحث في العلوم الشرعية:** فريد الأنصاري، منشورات الفرقان، الدار البيضاء، الطبعة الأوى ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٤- **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة:** عبد المتعال الصعيدي(ت: ١٣٩١هـ)، مكتبة الآداب، الطبعة: ١٧ سنة: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٥- **البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية:** أ.د/ محمد محمد حسنين أبو موسى، طبعة: دار الفكر العربي القاهرة. الطبعة: بدون.

٦- **تاج العروس من جواهر القاموس:** محمّد ابن محمّد ابن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٧- **التعريفات:** علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ)، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر- دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

٨- **الحيوان:** عمرو ابن بحر ابن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، نشر: مصطفى البابي الحلبي، عام:١٩٦٥م، الطبعة الثانية.

٩- **الخصائص:** أبو الفتح عثمان ابن جني الموصلي (ت: ٣٩٢هـ): الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة.

١٠-**دلائل الإعجاز في علم المعاني:** أبو بكر عبد القاهر ابن عبد الرحمن ابن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت:٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

١١-**دلالة السياق عند الأصوليين دراسة نظرية تطبيقية:** سعد ابن مقبل ابن عيسى العنزي، جامعة أم القرى، كلية الشريعة الإسلامية، سنة: ١٤٢٨هـ.

١٢-**دلائل النظام:** عبد الحميد الفراهي الهندي(١٣٤٩م). الطبعة الأولى، المطبعة الحميدية، سنة: ١٣٨٨هـ.

١٣-**رسائل الجاحظ:** عمرو ابن بحر ابن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان،

الشهير بالجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، عام: ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م.

١٤-**شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم:** نشوان بن سعيد الحميري اليمني (ت: ٥٧٣هـ)، تحقيق: د حسين ابن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإرياني - د يوسف محمد عبد الله، الناشر: دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق- سورية)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

١٥-**الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها:** أحمد ابن فارس ابن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ)، محمد علي بيضون، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

١٦-**الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية:** أبو نصر إسماعيل ابن حماد الجوهري الفارابي (ت:٣٩٣هـ)، طبعة: دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧ م.

١٧-**الفائق في غريب الحديث والأثر:** أبو القاسم محمود ابن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، طبعة: دار المعرفة - لبنان، الطبعة: الثانية.

١٨-**كتاب العين:** أبو عبد الرحمن الخليل ابن أحمد ابن عمرو ابن تميم الفراهيدي البصري (ت:١٧٠هـ)، تحقيق: د/ مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

١٩-**الكليات "معجم في المصطلحات والفروق اللغوية":** أبو البقاء أيوب ابن موسى الحسيني الكفومي، طبعة: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٢٠-**لسان العرب:** محمد ابن مكرم ابن على، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت:٧١١هـ)،طبعة: دار صادر- بيروت، الطبعة: الثالثة- ١٤١٤هـ.

٢١-**مجمع الأمثال:** أبي الفضل أحمد ابن محمد ابن إبراهيم الميداني النيسابوري (ت: ٥١٨هـ)، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، طبعة: دار المعرفة- بيروت، لبنان.

٢٢-**مجمل اللغة:** أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت:

٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية – ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م.

٢٣-**المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**: نصر الله ابن محمد ابن محمد ابن عبد الكريم الشيباني، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (ت: ٦٣٧هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر– بيروت، عام:١٤٢٠ هـ.

٢٤-**معجم الفروق اللغوية**: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ) طبعة: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٢٥-**معجم مقاييس اللغة**: أحمد ابن فارس ابن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ)، طبعة: دار الفكر، سنة: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٢٦-**معجم اللغة العربية المعاصرة**: د أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

٢٧-**المعجم الوسيط** : إبراهيم مصطفى. أحمد الزيات . حامد عبد القادر . محمد النجار ، طبعة: دار الدعوة ، تحقيق: مجمع اللغة العربية.

٢٨-**نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية**: للدكتور/ المثنى عبد الفتاح محمد، دار وائل للنشر، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٨ م.

٢٩-**نقد الصحابة والتابعين في التفسير**: د/ عبد السلام الجار الله، دار التدمرية، الطبعة الأولى ٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٣٠-**نهاية الأرب في فنون الأدب**: أحمد ابن عبد الوهاب ابن محمد ابن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (ت: ٧٣٣هـ)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى، سنة: ١٤٢٣هـ.

٣١-**نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**: فخر الدين محمد ابن عمر التميمي الرازي الشافعي (ت: ٦٠٦هـ)، حققه د/ نصر الله حاجي مفتي أوغلي، طبعة: دار صادر– بيروت–، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م.